

مذاہب و شخصیات



مت اُعلام ..
الفکر والادب

بقلم: انور اجنبی





من أعلام ..
الفكر والأدب

بقلم: أنور الجندري



انجمن شوقی

لست ادري هل كان يصل شوقي الى ذروة الكمال الفنى لو لم يتح له أن ينفى ويقضى فى الاندلس خمس سنوات ثم يعود خلقا جديدا وقد بعد عن القصر أو كاد . ومضى يشق طريق العمل الفنى الخالص حتى اذا ارتفع به السن أوفى على قمة المجد بأن ابتدع هذا اللون الجديد من الشعر التمثيلي الذى لم يكن معروفا من قبل فى اللغة العربية .

والحق ان نفى شوقي هو اخطر حادث فى تاريخ حياته كله . اثر فى مجرى أدبه وفنه وشخصيته جميعا . وقد أجاب عن ذلك فى الهلال (عدد نوفمبر ١٩٢٩) قال اذا عزی الى الحرب الكبرى - يقصد الاولى - كثير من التغييرات والانقلابات فى أنظمة العالم وشئون الاجتماعية والأدبية فاني أعزو اليها هذا الاثر العظيم الذى أحدثته فى مجرى حياتي . وكان له فضل كبير فيما نلته من مكانة فى الادب . وامتلاك لناصية الشعر العربى .

ذلكم انه لما وقعت الحرب الكبرى وشمل العالم هذا الاضطراب الفريد وانضمت تركيا الى الألمان عمدت انجلترا الى قلب نظام الحكم فى مصر . واعلنت انتهاء حكم الحديو عباس حلمي الثانى . ثم أخذت تنفى عن مصر كل من لهم صلة به فأمرتني بالرحيل الى اسبانيا . فجمعت عائلتي . واصطحبت مكتبتي وسائر مرافقي وغادرت مصر الى برشلونة . وهو ثغر على شاطئ البحر الأبيض يشبه مرسيليا فى المدنية ويكاد ينم عما كان فيه من سالف الحضارة العربية فى عهد الدولة الاندلسية فادخلت أولادى المدارس الراقية ثم عكفت على قراءة كتب الادب العربى فى أوقات النزهة ومشاهدة السينما فاستوعبت منها ما لم أكن قد استوعبت وطالعتها كلها حتى أكاد اقول انه ليس فى الادب العربى كتاب لم استوعبه خلال السنين التى مكثتها باسبانيا . وقد ساعدنى فى ذلك طبيعة الجو اللطيف الذى يشبه جو الاسكندرية وجمال المناظر التى تحاكي ضواحي الآستانة فى رشاقتهما ونظامها .

فى هذا الجو ، وفى ذاك الوسط الكريم ، نشأت نشأة أخرى فى الادب العربى واستأنفت دراستي له بعناية واهتمام . وتوفرت على رياضة

الذهن فى ثمرات الفرائح العربية منشورها ومنظومها فحصلت على ثروة
لم أفر بها من قبل ..

وبأتى بعد هذا فى حياة شوقى ذلك التحول العجيب فى فن الشعر
نفسه فهذا الشاعر الذى قال فى شبابه نهج البرودة وشعر المديح للرسول
سائغا شفاقا وكأنما استمدته من صوفية عميقة وإيمان خاشع . هو الشاعر
الذى قال فى سن الستين هذا الشعر الغرامى والوجدانى والعاطفى الرائع .
وهو الذى صور حب كليوباترة وحياتها وصور جنون قيس وهيام ليل .
واستطاع أن يصل الى أعماق العاطفة الحنون وهذا الهيام فى الفلوات
والبيد .

ولعل هذه الظاهرة الغريبة لم تكن موضع عناية كثير من الناقدين
أو المؤرخين . وهنا نظرح سؤالا بالغ الأهمية فى حياة شوقى وفنه .

هل يمكن أن يكون شوقى قد وصل الى هذا الإبداع فى وصف الحب
دون أن يكون قد ذاق الحب . ؟ الحق أنه ليس بين أيدينا ذلك الدليل المادى
الواضح . وقد ذهب الكثير من النقاد الى أن تصوير شوقى للحب إنما هو
لون تقليدى لا صلة له بحياته ، ولكنى لا أرى هذا الرأى ، وإنما أعتقد
موقنا أن شوقى عرف الحب فى صور مختلفة وأتيح له أن يشرب من هذه
الكأس وأنه حرم كثيرا وأمدته هذا الحرمان بهذه الصور من اللوعة والشوق
التي تبدو فى ثنايا شعره الوجدانى . ولعل لا أبعد عن الحقيقة اذا
قلت أن شوقى قد عرف فى الأندلس وجوها تفيض بالجمال ونفوسا
تفيض بالحنين الى أصلها العربى .

وهنا فى القاهرة فى هذه المغانى التي كان شوقى يغدو إليها ويروح،
كم من وجه وسيم وروح نبيل هفا نحو الشاعر الذى كان موضع الإعجاب
والتقدير فى كل ندوة أو ناد . وهناك فى باريس حيث قضى الشاعر
شطرا من شبابه وعاد إليها مرات ، هل تركته مدينة النور دون أن تأخذ
منه خفق القلب ووجيب الضلوع ؟

ان شوقى يسجل فى حديثه عن الأندلس هذه العبارة التي تحمل
ألف معنى : « هذا الى أخلاق الأهالى التي تميل الى الأخلاق الشرقية
العربية مما جعل بينى وبينهم ألفة حسنة » .

أليست الألفه نوعا من الحب ؟ . ويقول الاستاذ حسين شوقى فى
مقاله « أبى فى الأندلس » على أثر زيارته للأندلس .. « وذهبت فى الليل
الى (البراللو) وهو حي برشلونة الفنى كالحى اللاتينى فى باريس ..

« كان مشهورا بجوه المرح وكان أبى يذهب هناك أحيانا ، اذ كان يسر
للمناظر البوهيمية التي تشاهد فيه » . .

فإذا قيل في الرد على هذا ماقاله بعض النقاد من أن أول مانلاحظه
على « مجنون ليلي » الذي صنعه شوقي البرود والركود ، وانه لا تلمح مرة
واحدة في مجنون ليلي تلك الحركة اللاعجة ولا تلك الثورة العاصفة ، قلنا
ان « مجنون ليلي » شوقي فيه من عمق الحب قدر ليس بالقليل . ولعل
عذر شوقي انه صنع هذه الشخصية بعد الستين . ويكفيه في هذا السن
أن أحيأ ثورة الحب على هذه الصورة الرائعة .

ولم يكن من اليسير على شوقي - وهو في مثل وضعه ومركزه وفي
هذه الفترة من التاريخ بالذات - أن يجهر بالحب الا في صورة قصص
مسرحية أو أغنيات لها مناسبتها وطابعها .

ولا يبعد أن يكون شوقي قد أحب مع ارتفاع السن . وهذا النوع
من الحب بعيد الاثر ولعله هو الذي دفعه الى أن يغلفه في صورة قيس وفي
صورة انطونيو اذ لم يكن من الميسور له أن يكشف عنه في صراحة ويجهر
به . وقد عرف هذا اللون فيكتور هيجو وجوته . ويقول مؤرخه أحمد
محفوظ انه « لم يعرف اللوعة في الحب قط ، وانما هي رغبات عاطفية كان
يستعين عليها بماله ، ثم ينصرف عنها . وكان لا يدخر مالا في سبيل
الوصول الى غاياته ولم يعرف عنه أنه تعلق بامرأة وتدله بها . ولا تنكر
عليه انه أحب ولكن حب القادر على الحبيب المتمكن من الوصول » .

وهو في هذا الميدان أقوى من البارود . وأنفذ في تصوير العاطفة
المشوقة القلقة . وان كان يبدو أن شوقي لم يعرف لوعة الحب أو حرمانه
على الصورة العاصفة . ولعل هذا مما يجعلنا نظن أن هذا الحب جاء متأخرا
قليلا .

وقصيدة شوقي التي صور فيها انطواء صفحة شبابه كان أبرز ما فيها
حزنه على الحب :

شيعت أحلامي بطرف باك ولمت من طرق الملاح شباكى
ورجعت أدراج الشباب وورده أمشى مكانهما على الاشواك
وبجانبي واه كان خفوقه لما تلفت جهشه المتباكى

وتعطي آثار شوقي صوراً للعاطفة متناثرة متنوعة . وقد غلب فيها
جانب التضمين على جانب التصريح ولكن قصيدته التي نظمها في لبنان

عام ١٩٢٥ لاتحتاج الى دليل فهي صريحة تخفف فيها الشاعر من وقاره
وغلب عليه لون من التحرر غير معهود فى قصائده وهذه أبيات منها :

دخل الكنيسة فارتقت فلم يطل فأثيت دون طريقه فزحمته
فأزور غضباناً وأعرض نافراً حال من الغيد الملاح عرفته
فصرفت تلعبى الى أترابه وزعمتهن لبسانتى فأثرتيه
فمشى الى وليس أول جوذر وقعت عليه حبائلى فقتصته
قد جاء سحراً للجفون فصادنى وأثيت من سحر البيان فصدته

كان شوقى قليل الكلام ، ولم يكن ممن يتصدرون المجالس . بل
كان منظوياً يوجز القول ويطيل الصمت . وكان من حوله يهابونه
ويتكلمون معه فى حذر . ولا يرى شوقى أستاذاً له غير اسماعيل صبرى .
ولم يذكر شاعراً فى اعجاب كما ذكر المتنبي اذ كان يفضل على جميع
الشعراء العرب وقد عارضه كما عارض أبا العلاء .

ولقد ولد بباب اسماعيل (١) وعاش فى ظل الغنى واليسار . فلم
يتصل فى كثير ولا قليل بالشعب ولا بالحياة العامة . وقد شغل شوقى
نفسه فى فجر حياته بمديح الملوك والخلفاء . ثم تحول الى مدح الرسول
وصاغ فى ذلك قصائد غاية فى الروعة والقوة ، وقد كان ازوار شوقى
عن المجتمع واعتزاله وحياته المترفة ، المغمز الذى غمزه به نقاده لانه
عجز عن مشاركة الشعب فى آلامه . غير أن شوقى لم يلبث أن خرج عن
شعر القصور والمناسبات بعد عودته من المنفى عندما اكتشف شاعريته
وأمن بها . ويروى لطفى السيد فى حديث للدكتور طه حسين قوله
« كنت القى حافظ أول عهده بالشعر وكان يسمعنى كثيراً من شعره
فلا يعجبني فقلت له ذات يوم : أرح نفسك من هذا العناء فلم يخلقك
الله شاعراً ولكنه لم يقبل نصحي وحسنا فعل فما زال يكدح حتى أرغم
الشعر على أن يعنو له ويصبح شاعراً وكنت شديد الاعجاب بشعر شوقى
أقرؤه فى لذة تكاد تشبه الفتنة واثنى عليه كلما لقيته فما زال شوقى
يكسل ويقصر فى تعهد شعره حتى ساء ظنى بشعره الاخير . »

قال انطون الجميل « انه لم يشد الى قيثاره الشعر وترا جديداً
ولكنه عرف كيف ينطق الاوتار القديمة بنغمات جديدة مستعذبة . »

وأوتار العود معدودة وهى تحت أنامل العازف . وهكذا كانت أوتار القيثارة القديمة فى يده تخرج ألحانا مستجدة من كل موضع » .

وقال خليل مطران « ان شوقى لا يكدر فكره فى معنى أو مبنى وكثيرا ما يعارض المتقدمين ولا يعسر عليه أن يبرزهم . وشعره هو شعر التفوق والعبقريّة » .

وقد وصف النقاد طبيعة شوقى بأنها طبيعة معقدة وردوا ذلك الى أن فيها من الترك واليونان والشركس (١) وأن كل هذه الآثار وما فيها من طبائع اصطلحت على تكوين نفس شوقى . هذه النفس بحكم هذه الطبيعة أو الطبائع أبعد الأشياء عن البساطة وأناها عن السذاجة . وهى بحكم هذا التعقيد والتركيب خصبة كأشد ما يكون الخصب ، غنية كأوسع ما يكون الغنى ..

وأجمع النقاد على وصفه بأنه أعظم شاعر فى العربية بعد أبى الطيب المتنبى .

وقال عبد العزيز البشرى فى وصفه بأنه مفرط فى حب نفسه .. شديد الوله بها مفرط فى حب بنيه .. شديد الوله بهم . وانه بعد ذلك شديد الرقة للناس جميعا أضعفه الحب وقل من عزمه فلا يستطيع أن يشهد مشهدا مؤلما ولا يستطيع أن يسمع قصيدة حزينة . ولو قد عرض لسمعه أو لبصره شيء من هذا لولى منه فرارا ولملأ منه رعبا . وهو ولوع بنفسه هيبوب من أن يعترىها الأيام بمكره .

وقد كان شوقى يجرى وجوده بشعر الحكمة يطلقه على سجيته دون تفكير ، وعلى ما كان عليه من بلاغة القصيد ، لم يكن يلقي شعره أو يجيد الحديث فى مجالسه فكان قليل الكلام كثير الاطراق ، وغلبت عليه النزعة الدينية القدريّة وبدأ حبه لآل البيت واضحا فى قصيدته ، كما بدت عاطفته للشرق والاسلام والعروبة ظاهرة فى اثاره ، حتى كان شعره فى سوريا وقودا للثورة السورية بشهادة السوريين أنفسهم .

وقد وصف أحمد عبد الوهاب سكرتيه الخاص طريقة نظمه للشعر فقال : « لقد لازمته فى ليلة فى بوفيه « دى لابردي » على كوبرى قصر النيل وكان ذلك قبل الحرب فشرع يعمل فى قصيدة النيل التى مطلعها :
من أى عهد فى القرى تتدفق وبأى كف فى المدائن تغدق

(١) طه حسين .

وكان كل نصف ساعة يركب مركبة خيل ويسير فى الجزيرة بضع دقائق ثم يعود الى المنضدة التى كان يجلس عليها فيكتب عشرة أو اثني عشر بيتا . وهكذا انتهت القصيدة فى ليلة الا بيتا استعصى عليه ولم يتمكن منه الا بعد يومين .

» . . . وكان اذا شغلته أشياء عن قصيدة طلب اليه عملها ، ولم يتذكرها الا قبل ميعادها بساعات أو عند طلبها ، ابتسم وطلب أن يتناول صفار ثلاث من البيض التى يشربها نيئة . ثم يبدأ فى النظم فلا تمضى ساعة حتى يتم القصيدة (١) .

وكان يملئ فى رواياته الأربع : قممير وعلى بك والبخيلة وهدى فى وقت واحد ويشهد الدكتور طه حسين بأن شوقى أدخل فى اللغة العربية وفى الشعر العربى خاصة بهذه الروايات فنا جديدا لم يسبقه أحد اليه وهو فن التمثيل الشعرى .

خرج شوقى من القفص الذهبى عندما قال قصيدته التى نفى من أجلها . . ولم يعد اليه مرة أخرى ولعل قصائد شوقى عن المنفى هى أصدق قصائده تصويرا لآحساسه ومن أدقها قوله :

أحرام على بلبله الدوح حلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل الا فى خبيث من المذاهب رجس
وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

أضف الى ذلك قطعته النثرية عن قنال السويس فهى فيض نفس ملئت بالاسى والحزن والشعور بالظلم .

وقد سبق شوقى اترابه حافظ والبارودى بالشعر الغنائى والمسرحى الذى تفرغ له فى آخر أيامه .

ويلتقى شوقى مع البارودى فى الاتجاه الروحى فكلاهما قد نظم برودة البوصيرى وصور عاطفته فى حب الرسول .

وكان حافظ وشوقى فرسى رهان . فقد ظلا يتصارعان حياتهما حتى اذا جاء الموت ، قضيا فى عام ١٩٣٢ الذى غيب الشاعرين فى التراب .

(١) وصفه أحد أصدقائه بأنه كان يفيض فى شأن من يجلسون معه » حتى نحسبه أهدنا ثم ينقطع كل هذا فجأة ويرجع الى نفسه فيصبح ليس معنا فهناك تسمع غفمة كلها آتية من غور بعيد ثم لايزال بعد ذلك يسمح على جبينه بيده ثم يهب واقفا ويتركننا من غير أن يتسم أو يسلم .

وكان حافظ يحس بقوة شوقى وعظمته فيذعن ويباع له فى مهرجان
(٢٩ ابريل ١٩٢٧) :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا وهذى وفود الشرق قد بايعت معى
فلما توفى حافظ فى حياة شوقى نعا على هذا الاسلوب من الايثار:
قد كنت أوتر أن تقول رثائى يا منصف الموتى من الاحياء
واتصل شوقى وهو فى المنفى بحافظ يقول :

يا ساكنى مصر انا لا نزال على عهد الوفاء وان غبنا مقيمينا
فرد عليه حافظ يقول :

عجبت للنيل يدري أن بلبله صاد ويسقى ربه مصر ويسقينا
... وكانا مع ذلك مختلفين أبعد اختلاف ، كان منهجها متباينا ،
أما حافظ فكان أول أمره قويا غاية القوة ، كان شاعر الشعب والمجتمع ،
ولما عاد شوقى من منفاه تحول ومضى يخطو فى قوة ويقفز ، حيث بقى
حافظ جامدا ، والتهم شوقى فى منفاه كل آثار العرب ولم يدع كتابا
لم يقرأه ، فاضاف ذلك الى شخصيته الادبية قوة عارمة ، فى الوقت
الذى كان حافظ يقضى ليلاليه سميرا يتوسط المجالس وينثر الفكاهات
والأحاديث ، وبيته لا مكتبه ليس فيه الا بضعة أجزاء من الأغاني ، وان ظل
حافظ يبهر الناس بطريقة القائه يضيف الى معانيه قوة وروعة بصوته
الملى ونبراته الجهيرة .

يقول المازنى (وأنا اعتقد ان شوقى مدين لخليل مطران بأكثر مما
يعرفه الناس - ولا سيما فى صدر حياته - فان خليل مطران هو أول من
أدخل شيئا من التجديد على الشعر فى مصر وتبعه شوقى حيناً) وروى
طاهر الطنحاحى ان « حافظ » قال فى بعض مجالسه « والله شوقى لشاعر
وانه لأشعر منى ، اقررت بهذه الحقيقة فى شبابى وكهولتى . ولا اريد ان
اكفر بها فى شيخوختى » .

وقد وصفه الموسيقار محمد عبد الوهاب بانه كان مرهف الحس
لدرجة انه يشعر بالكوارث قبل وقوعها فيداخله الخوف ، فمثلا كان لا يعبر
طريقا الا اذا كانت السيارات القادمة تبعد بمسافة كبيرة ، وكان أيضا
يخاف الناس فاذا اندفع اليه شخص ارتعش واضطرب ، ويضاف الى هذا
ان شوقى كان يحب الحياة حبا جما ويكره الموت ويخافه .

وبعد فقد كان شوقي يغار على شعره ويكره النقد وينفر منه وله فى ذلك قصص ويبدو ان هذه كانت طبيعته .

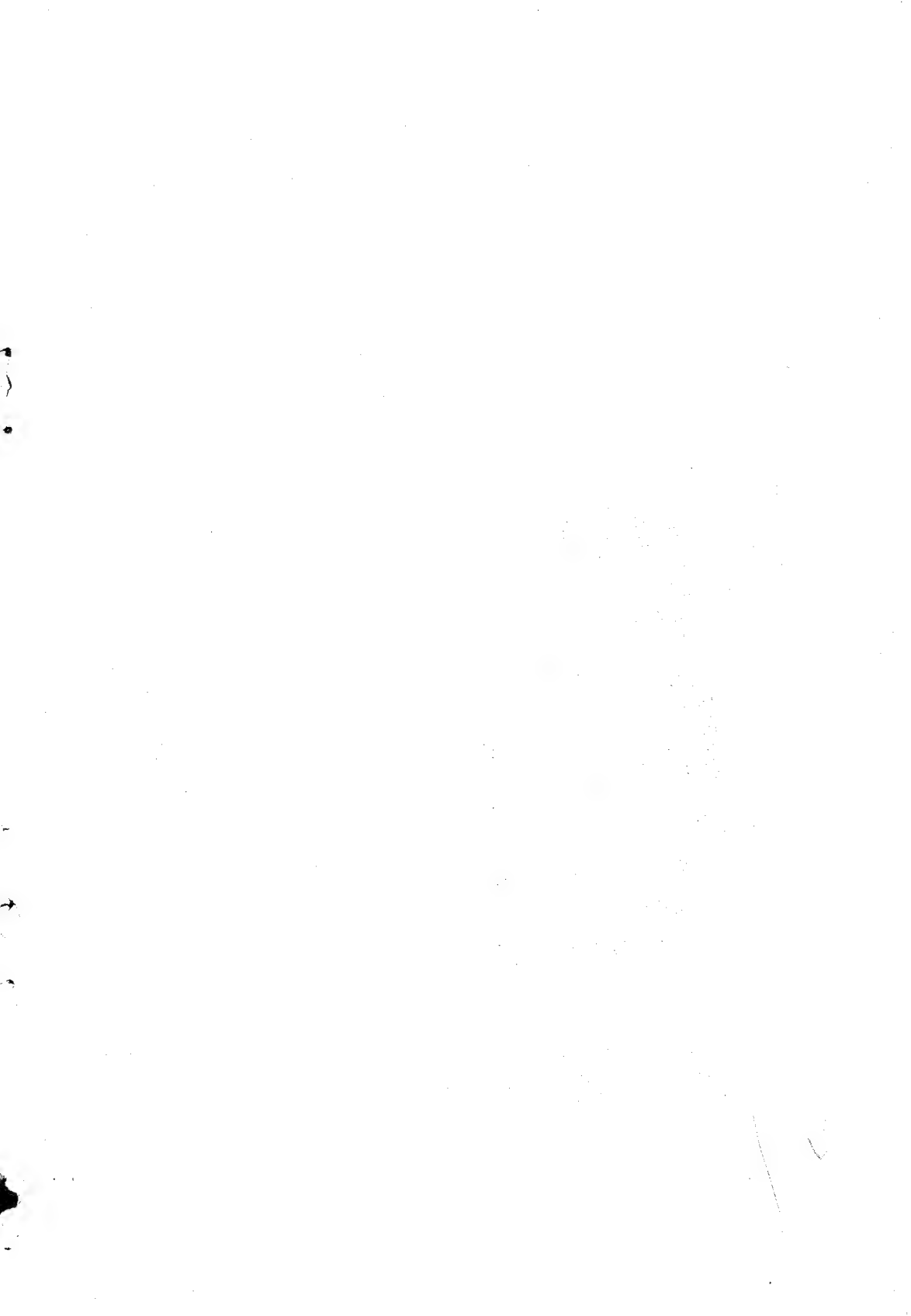
وقد حمل عليه العقاد والمازنى وطه حسين . ثم تحول المازنى وطه عن رأيهما وبقي العقاد على رأيه . وهاجم هيكل شوقي بعد ان كتب مقدمة الشوقيات وهو بهذا الهجوم قد تحول عن رأيه الذى اعلنه فى المقدمة .

وغاية القول أن شوقي جمع فى شعره بين النواسى والمتنبى على فترات حياته ، الأول فى شبابه والثانى فى شيخوخته ، محاولا أن يكون شاعر الحكمة وشاعر الحب والجمال ولكنه مع ذلك كان نسيجا وحده يمثل عصره وشخصيته .

ولقد أتبع لشوقي بعد وفاته أن يمعن فى السير قدما فى طريق الخلود بعد أن جرى مجرى الغناء وانتقل الى اللسنة التى لم يكن من اليسير ان تطالعه أو تلم به فى دواوينه .

وقد اكسب هذا شوقي بعد أن أمعن فى طريقه الى جوار الله ، طريقا ولعانا أضفيا على فنه قوة جديدة ومهدا له سبيل الخلود على نحو لم يكن ميسورا فى حياة الشاعر .





الشاعر ولد على ضفاف النيل عند ديروط ، وعاش حياته أعزب منطويا على نفسه فى دار الكتب عشرين عاما بعد ان عاد من السودان ، كان خلالها مقيدا بقيود الوظيفة لا يستطيع ان يقول أى شىء .

نشأ فى بيئة شعبية ، ومات والده صغيرا ، وذاق طعم البؤس واليتم والخصاصة ردحا من حياته .

عاش «١» حياة الناس واضطراب فى بيناتهم وخبر آلامهم وأحزانهم وخفق قلبه الرقيق لهم .

ولد وفى نفسه تلك الجذوة الشعرية الملهمة الفياضة ولكنها ظلت خافتة نائمة لانه لم يكن قد آن وقت ثورتها ، واغلب الظن ان حافظ قد حبس لها وجمع ما صادفه من الوان التأمل والدرس فى أناة واصطبار .

وظل هذا الشاعر الصامت ينازع نفسه غايات الحياة وأسباب المجد وينفر من السودان والحرب والجيش ، ويود لو تهيأ له ان يعود الى مصر . وهو فى حنانه وشوقه وانزعاجه وثورته انما كان يرسم الخطوات الاولى نحو ذلك المجد .

وقد اتصل حافظ فى حياته برجلين كانا من كبار الرجال فى عصره هما محمد عبده وسعد زغلول .

واستمرت صلته بالشيخ عبده طويلا ، وكان قد كتب اليه من السودان يطلب منه ان ينقل الى القاهرة بعد ان ضاق بالغربة ، ثم ظل متصلا به اربعين عاما ، وقد اثر عن الشيخ عبده قوله « اننى صحبت « حافظ » اربعين عاما فلم أستطع أن أهديه ولم يستطع أن يضلنى » .

ومعنى هذا ان حافظ على صلته القوية بالشيخ عبده لم يتأثر به ولم يستفد منه وفى حياة حافظ عقدة غير واضحة لم تستكشف بعد ، فقد كان نواسيا الى أبعد حد وقد حوى ديوانه بعض قصيده فى مناجاة

« الغلظة والخمر • وقيل انه تزوج ثم طلق بعد اربعين يوما وعاش بعد ذلك أعزب ما بقي فى حياته •

فاذا اردنا ان نعرف أثر المرأة فى أدبه وفى حياته شق علينا ذلك ولم نجد السبيل اليه الا فى بعض أبيات كان يفتتح بها قصيدة وفق ذلك الأسلوب التقليدى فى الاستهلال بالنسيب •

ويعد هذا الجانب من أغمض الجوانب فى حياته ، ولم يتناوله أحد من الذين كتبوا عنه ولم يلق عليه أى ضوء حتى ليتمكن القول بأن حافظ كان بعيدا عن محيط المرأة وانه لم يعرف الحب ولا هذا اللون من العاطفة ، ولعل مرجع هذا الضيق والبؤس واضطراب الاعصاب يكون نتيجة لهذا الازورار عن هذا المعين الروحى الفياض •

وقد وصفه عبد العزيز البشرى بانه خفيف الظل عذب الروح حلو الحديث حاضر البديهة رائع النكتة • اذا كتب لك يوما ان تشهد مجلسه اخذك عن نفسك حتى ليخيل اليك أنك فى بستان تقطعت جدوله ، وهتفت على أغصانه بلبله •

« وهو اجود من الريح المرسلة ، ولو انه ادخر قسطا مما اصابته يده من الاموال لكان اليوم من أهل الثراء على أنه ما فتى طوال أيامه يشكو البؤس حتى اذا طالت يده الالف جن جنونه أو ينفضها فى يوم اذا استطاع •• ثم هو ما يرح يطلب البؤس طلبا ويتفقده تفقدا •• » •

« وهو عنيف الطعن قليل الصبر سريع الغضب ، له صوت جهير ضخيم ، رائع المقاطع فاذا هو وقف ينشد الجماهير هزها ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات •• » •

ويرى خليل مطران أن حافظ « يجيد الرواية من قصائد العرب واذا فاته الابتكار فى المعنى فانه لا يفوته فى التصوير ، وهو مؤثر فى شعره السهل الممتنع ، وقد اتخذ أسلوبا جعل الشعر قريبا الى أذهان الجمهور وأذواقه وشعره هو شعر البيان الناصع » •

وقد وصف نفسه بقوله « هناك عوامل تجعلنى اجيد الشعر وهى أن اكون فى حالة من الشجن تجاوز الحزن أو اكون متعبلا مضطرا ، أو اكون فى أرق ، اما الصفاء والانس والفرح والسير فى الرياض وعند الماء والشجر فيحدث فى نفسى حالات لا تواتينى على النظم ، فانا لا أجيد القصائد فى التهانى نفسها الا وأنا حزين ، وانى أومن بأن لكل شاعر

شيطاناً لأننى أكاد أسمع به يهمس فى أذنى المعنى وأحياناً ينصرف فيغلق على ، وأنا أقيد همساته ، بيت اكتبه فى القهوة وآخر اكتبه وأنا بالقطار وآخر وأنا احادث الاصحاب واكبر عوامل الافساد للشعر ان يطلب منا الشعر » .

وأحب قصائده اليه عادة اليابان وقصيدة اوجينى وذلك لسهولة لهما « لأن السهولة عندى مبدأً من مبادئ الشعر وكثيراً ما يخطر الى المعنى الجليل فأتركه لأن الألفاظ لا تواتينى » .

وكان يردد أمنية غالية اذا هبى له العمر ، ان يحذف من ديوانه الشعر التجارى فهو كان يعترف بأن فى شعره جانب غث يجب أن يطويه عن الناس .

وكان أفضل الشعراء عنده أبو نواس ثم البحتري وأبو تمام « ولست أحب المتنبي ولكن احترمه وأخذ البحتري بالحضن ، وأحب الجاحظ وأحب الأغاني » . وقد حفظ فى شبابه قصة عنتره التى يرويها شاعر الربابة ، ولحافظ قصيدة فى ثلثمائة بيت أنشأها فى هجاء اسماعيل صدقى وعهده لم يعثر عليها كاملة .

ويلتقى البارودى مع حافظ فكلهما دخل المدرسة الحربية وانتضى السيف وأحب الشعر وأوغل فيه ، غير أن البارودى اشتغل بالحرب فكان جندياً شجاعاً عاملاً ، وظل كذلك الى آخر حياته . اما حافظ فقد هجر الجندية بعد وقت قصير وآثر عليها حياة الموظفين فى نوادى القاهرة وسهرات قهوة متاتيا مع نرجيلته .. وهو يرسل حديثه ونكاته مع عبد الحليم المصرى وامام العبد وعبد العزيز البشرى .

ويختلف البارودى عن حافظ فى أنه اشتغل بالسياسة وكان معروفاً بالدهاء . كما اشترك فى الوزارة وشهد ثورة عرابى وهو القائل :

وانى امرؤ لولا العوائق اذعنت
من النفر الغر الذين سيوفهم
لها فى حواشى كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه
تفرزت الافلاك والتفت الدهر

وهما متفقان بعد ذلك فى ايثار الجزالة والاعجاب بالعبارة والعناية بالصياغة . وحافظ كان ملول الطبع مشتمت الأوزان والقصائد ويغلب أن مصدر ثقافته هى تجاربه فى الحياة ودراساته وتأملاته .

وقد كان يشعر بالغربة وهو على ضفاف النيل .

أيها النيل كيف نمشى عطاشا في بلاد رويت فيها الاناما
يرد الواغل الغريب فيروى وبنوك الكرام تشكو الاوامه
ان لين الطباع أورثنا الذل وأغرى بنا الجفاة الطغاما
وقال في أكثر من موضع يصف هذا اللون من البؤس القائم الذي
يلم بنفسه بين حين وحين ولعل مصدره انصرافه عن الحياة الوجدانية في
محيط الحب والمرأة .

والليل ارشده ابوه لشقوتي وكذا البنون على هوى الآباء

ويلتقي حافظ مع مطران الذي كان المجدد الاول في الشعر العربي.
الحديث وهو الذي دفع حافظ وشوقي الى التحول والتطور . . يلتقي حافظ
معه في أنه لم يتزوج ، ولكنه التقاء في المظهر لا في اللب ، لقد امسك
مطران عن الزواج مخلصا لذكرى حب كان حب حياته كلها ومصدر
الهامه في شعره ، وقد ماتت صاحبتة وهي عذراء ولم يعرف قلبها حب
انسان غيره ، فقد صدم في آماله وحبه في أوائل العقد الرابع من عمره .

ويخيل اليك عندما تراه انه ادرك جميع حقائق الحياة فاستوى
عنده حلوها ومرها . وهو يلتبس اعدار المخطئين قبل حسابهم عليها ،
يغضى عن الاساءة ويتناسى الهفوات ولا ينسى صديقه وان طال بينهما
الفراق .

ويقول مطران : « اننى انظر الى العالم على أنه مسرح يتداول المثلون
الظهور فيه فأنا أشد كل ممثل ، واسمع كل ما يقال ، على أن استخلص
من ذلك ما لاح لى من العبرة والاسوة .

ولقد أحب هذا الرجل النحيل الضامر حبا واحدا مدى عشرين
عاما كاملة :

أحبك حتى لا سرور ولا منى
أحبك حتى ينكر الحب رسله
ولا شمس الا أن أراك ولا نجما
جبلأوقيسا والذين استشهدوا قدما
لا حبيت حتى الموت فيك ولو ذما
ولو لم تكن فى الموت سلوى أخافها

وقصيدة مندبل الحبيبة تكشف عن هذه العاطفة الحارة :

اعد أيها المندبل ذكرا محببا
فما بك من نشر فى القلب مثله
وانطق به الطيب الذى فيك مطريا
طواه الهوى قدما وما زال طيبا
وصنت ضميرى واللسان المشييه
وكم عرضت لى غانيات فعفتها

وأمنية مطران : الحياة الى الساعة الاخيرة من العمل والموت متى
جاءت ساعته بلا وجل .

وهو عند طه حسين زعيم الشعر العربي المعاصر ، وأستاذ الشعراء
العرب المعاصرين لا يستثنى منهم واحدا ولا يفرق بين المقلدين والمجددين ،
وانه حمى حافظ من أن يسرف في المحافظة وشوقي من أن يسرف في
التجديد .

وصف مطران دوره في التجديد (الهلال - نوفمبر ١٩٣٣)
« أردت التجديد في الشعر منذ نعومة أظفاري . ولقيت دونه ما لقيت
فى عنف ومناوأة ، وليس هنا محل وصف الآلام التى عانيت بها للبواعث
التي انبعثت منها نوازع الذين حاولوا السبيل بضع سنين .

» وعدت الى الشعر وقد انضج الفكر لى طريقة فى كيف ينبغي
أن يكون الشعر فشرعت أنظمه لترضية نفسى حيث أتخلى ، أو لتربية
قومى عند وقوع الحوادث الجلى متابعا عرب الجاهلية فى مراعاة الوجدان
على مشتتهام موافقا زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الالفاظ والتراكيب .
لا أخشى استخدامها احيانا على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من
الاساليب . . . وذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التفريط
فى شىء منها » . . وقال مطران فى حديث له (١) انه عزم على مفارقة
الشعر اذا لم يتهيا له فيه مذهب جديد . وظل يجاهد حتى تحقق له
ذلك .

وقد اتفق لحافظ ومطران أن يترجما الآثار الغربية فترجم حافظ
البؤساء وترجم مطران روايات شكسبير .

وهنا يبدو مدى الفارق بين حافظ وشوقي ومطران وقد جمعهم
الزمن فى جيل واحد . كل له طابعه وطريقته وحياته الخاصة واتجاهه
الشعرى ومعالمه النفسية الواضحة .

ان مطران هو أوضحهما من ناحية الطبيعة النفسية فقد كان حبه
واضحا واتصاله بالمرأة بارزا فى صورة قوية رائعة .

٦ وعاش حافظ بعيدا عن هذا الميدان يطوى أيامه وفى نفسه ذلك
البؤس الذى ما أظن ان مصدره الا خلو حياته من المرأة التى كان يعزف
عنها .

(١) مجلة كل شىء : ٨ من ديسمبر ١٩٢٩ .



مفتی اعظم پاکستان

لا شك ان كبار « الرواد » الذين أقاموا صرح الادب العربى المعاصر
قد فتحوا عيونهم فى مطلع الشباب على أدب هذا الكاتب .

هذا اللون الجديد الذى ابتدعه فى مطلع القرن ، حتى كان الثالوث
« طه حسين وأحمد حسن الزيات ومحمود زناتى » يترتب المؤيد كل
خميس ليقرأ له فى اعجاب .

أشرق (١) أسلوب المنفلوطى على وجه المؤيد اشراق البشاشة ،
وسطع فى أندية الادب سطوع العبير ، ورن فى أسماع الادباء رنين
النغم ، ورأى القراء الادباء فى هذا الفن الجديد مالم يروا فى فقرات
الجاحظ وسجعات البديع وما لا يرون من غثاثة الصحافة ، وركاكة
الترجمة فأقبلوا عليه اقبال الهيم على المورد الوحيد العذب ويبدو المنفلوطى
فى رسائله وقصصه فى صورة قاتمة حزينة فهو قادر على أن يرسم صورة
الالم الممض ، فيحول الاجواء كلها الى عواصف ودموع وآلام وبكاء ونواح .

ولا يزال أدب المنفلوطى - بعد أربعين عاما - قويا حيا يبعث فى
النفس آثاره دون أن تقضى عليه الالوان الجديدة التى جاءت بعده وان
لم يكن أدب القوة الا حين يتصل بالسياسة والوطنية فله فيها آيات من
القوة والجرأة الحاسمة .

بدأ حياته الأدبية سنة ١٩٠٧ ناثرا وكاتبا ، وان كان قد سبق
فنظم الشعر وكانت له من بعد قصائد شهر فيها بالاحتلال وسجن من
أجلها ، وكان هذا الاتجاه الشعرى الباكر مصدر تلك الثروة اللفظية ،
واللون الوجدانى فى نثره .

والمنفلوطى من المنشئين الذين تبدو عاطفتهم واضحة وراء انتاجهم ،
فهو ليس من الكتاب العقليين أو أصحاب المذاهب الفكرية بقدر ما هو من
كتاب المعانى التى تتصل بالحب والحرمان والالم والبؤس .

وان كان قد أخفق فى دراسته الازهرية فقد فتح له ذلك - شأن

(١) أحمد حسن الزيات : وحى الرسالة ج ١ .

من كانوا على شاكلته - بابا لقراءة متصلة واسعة في الادب العربي القديم وروائع الشعر والنثر مما اتاح له أن يكون مجددا في الأدب . وان يبدأ فجر النهضة الأدبية بهذا اللون الذي لم يسبقه أحد به من قبل .

ومهما يكن من رأى بعض كتابنا في المنفلوطي (١) فان أثر أسلوب المنفلوطي يبدو واضحا في كتابات الرافعي وطه حسين والزيات وعبد العزيز البشري ، وقد استطاع المنفلوطي أن يظفر من ناقديه بأنه (٢) أحد أولئك الادباء القلائل الذين ادخلوا المعنى والقصد في الانشاء العربي .

غير ان المنفلوطي وان جدد في أسلوب التعبير ، الا أنه ظل محافظا في ميدان المعاني فقد تمسك بالقديم وحمل على قاسم أمين وكان يعلن أنه لا يثق بالاطباء وأنهم لا يغنون عن القدر ولا يرفعون نازلة القضاء .

فاذا أردنا أن نصل الى جوهر نفسه أمكننا أن نعتمد في ذلك على مصدرين كانا وثيقى الاتصال به . اما أحدهما فهو الزيات « .. كان صحيح الفهم في بطن سليم الفكر في جهد ، دقيقا في سكوت ، هيب اللسان في تحفظ ، ولذلك كان يتقى المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة ومرجع ذلك فيه الى احتشام التربية التقليدية في الاسرة ونظام التعليم الصامت في الأزهر وفرط الشعور المرهف بكرامة النفس » .

اما الجارم فيصفه قريبا من هذا حيث يقول « ... كثير الحفظ والرواية سريع الخاطر ، دقيق الحس ، نبيل العاطفة ، جذبا الى أقصى حدود الجاذبية جم الادب ، كان الحياء أبرز صفاته فلم تكن تتفتح نفسه وتبدو على سجيتها الا بعد معاشرة ومخالطة ، وهو محدث لبق يحسن اختيار لفظه ويجيد تصوير معناه » .

واتصل المنفلوطي بالشيخ على يوسف . . وكتب بالمؤيد ، فصول النظرات التي اشتهر بها ، واذاغت اسمه في كل مكان . . وابتدع بها هذا الفن الجديد في الكتابة العربية الجذلة السهلة الرائعة .

واتصل بسعد زغلول ودافع عن مذهبه السياسي وكان صديقا لحافظ ابراهيم وامام العبد وأحمد نسيم وأحمد فؤاد . . يساهروهم في قهوة أفندية . ولم يسلم المنفلوطي من متاعب الخصومة السياسية ، فقد هاجم في فصول النظرات عبد العزيز جاويز في مقال « طيقات الكتاب » اذ كان جاويز خصما للمؤيد ولسعد .

(١) العقاد في مراجعات في الادب والحياة .

(٢) المصدر نفسه .

ولعل مما يذكر هنا ان طه حسين كان قد افتتح حياته الادبية بالهجوم على المنفلوطى ينقد « النظرات » ثم عاد فصيح رأيه فيه عام ١٩٤٩ ، ويرى طه حسين فى هذا أنه تحول من أسلوب النقد الى أسلوب آخر فقد كان حريصا فى مطلع الشباب على النقد الذى يتصل بالالفاظ والعبارات .. ثم اتجه الى النقد الموضوعى بعد أن ارتفعت به السن ..

كما اتصل المنفلوطى بالشيخ محمد عبده . وقال فيه شعرا .. وترجمت له بعض القصص الاوربية ، فصاغها فى أسلوبه العربى البليغ ، فجاءت آية من آيات الابداع . من ذا الذى ينسى « ماجدولين » .. « والعبرات » . وذلك الطابع الحزين الذى يغشى صحائفها .. والحق أن آثار المنفلوطى تكشف عن نفسية تغلب عليها « العاطفة الحزينة » .. وهو يصف نفسه عند ما بلغ الاربعين .

« .. الآن وصلت الى قمة هرم الحياة والآن بدأت أنحدر الى جانبه الآخر . ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء وسكون حتى أصل الى السفح بسلام أو أعثر فى طريقى عثرة تهوى بى الى المصرع الاخير هويا .

سلام عليك أيها الماضى الجميل ، لقد كنت ميدانا فسيحا للآمال والاحلام وكنا نظير فى أجوائك البديعة الطليقة غادين رائحين ، طيران الحمام البيضاء فى أفاف السماء .. لانشكو ولا نتألم . ولا نضجر ولا نسأم .

... وما أنا بأسف على الموت يوم يأتينى . فالموت غاية كل حى .. ولكننى أرى أمامى علما مجهولا . لا أعلم ما يكون حظى منه . وأترك ورائى أطفالا صغارا » (١) .

... ويتناول هذا الموضوع مرة أخرى « أما من ورائى فالله يتولى السائمة فى مرتعها . والقطا فى أفحوصتها . والعصفور فى عشه . والفرخ فى وكره .

وداعا أيها الشباب فقد ودعت بوداعك الحياة . وما الحياة الا تلك الخفقات التى يخفقها القلب فى مطلع العمر » ..

هذه المعانى تعطى صورة الرجل المحب للحياة . المشفق من الموت ، الذى يستقبل الغيب على نحو من الخوف والتوجس .

وتبدو صورة المنفلوطى وهو يحب الحياة ويقبل عليها ويحرص

(١) النظرات (الاربعون) .

على المتاع بها فى هذا الخطاب الذى أرسله الى « الموسيقىار » حسن أنور بعد عودته من رأس البر ٠٠٠ « وصلت الى مصر وقد شعرت عند وصولي اليها بشيء من الانقباض أشبه بما يجده الهارب من سجنه عند القاء القبض عليه واعادته اليه ، وسأظل زمنا طويلا متمثلا فى ذهني جمال تلك الأيام التي تمتعت فيها بنعمة الحرية والطلاقة - لا يقيدني مقيد ولا يسيطر على مسيطر من النظم والتقاليد أجلس في كل أرض وأفنى الى كل ظل وأسير تحت كل سماء ، وأتحدث بكل ما يجول بخاطري من جد وهزل ، وصواب وهذيان ، كأننى أعيش فى عزلة منقطعة لا تقطع على فيها عين ، ولا يطرق سمعى صوت ، كما لا أنسى ما حييت جمال ذلك المصيف البديع ومناظر كتابانه ورماله وسمائه ، وبره وبحره ومواقع غزلانه ومرايح جآذره ، ومنظر لسانه العذب الرطيب وهو ممتد ساعة الاصيل فى غمار الماء ينهل منه النهلات الباردات .

فليت ذلك دام لى . ولكنه لايدوم ، لان السعادة فى هذه الحياة يوارق لامعة تخفق فى ظلمة الليل ثم تختفى (١) » .

هذه صورة نفسية للمنفلوطى فيها صراحة ووضوح بعيدة عن التكلف الذى تفرضه كتابات الصحف ، وهى أيضا تعطى صورة لأسلوب المنفلوطى حين يكتب لأصدقائه ، ويرسل نفسه على طبيعتها يصور المعانى التى تزدهم بها نفسه ، هذه النفس المحبة للحياة ، الحريصة على المتاع واللذة، الخائفة المتوجسة فى الوقت نفسه من نهاية السعادة حين يرى أنها ليست الا بوارق لامعة تخفق فى ظلمة الليل ثم تختفى .

وبعد فالمنفلوطى يأخذ مكانه هنا لانه علم على رأس مرحلة من مراحل الانشاء الادبى وعلى رأس « طريقه » فى الادب وأسلوب التعبير ومدرسة فى البؤس والحزن والحُرمان . والارجح أن يكون مرجع هذه الوجدانية التى تراها فى « ماجدولين » و « الشاعر » الى أشواق نفسية فى أعماق الكاتب نفسه وجدت مكان الافضاء عنها فى تلك الصور الشعرية التى رسمها يقلمه بعد أن ترجمت له .

ليس من شك ان المنفلوطى شاعر النفس ، وانه أحب وهذا هو سر قوته الوجدانية ويبدو أن المنفلوطى لم يجد فى مقدوره الكشف عن صور حبه فى صراحة فاختار أن يصورها على هذه الطريقة ، وجملة القول فيه

(١) الهلال - مارس ١٩٢١ .

انه اديب الآلام والحزن والحرمان يصورها بأسلوبه البليغ فتجد لها فى كل نفس صدى وفى كل قلب أثر .

خرج المنفلوطى عن الاسلوب التقليدى ، فادخل الى الادب المعانى والصور بعد أن كان الزخرف هو كل شيء ، فهو مرحلة بين المويلحى من ناحية وبين الزياد والرافعى من ناحية أخرى . وهو وان كان قد عاصر المدرسة المهجرية الا أنه تحرر منها وظل محتفظا بطابعه الخاص .

وهو يحرص احيانا على أن يكون ضخما فخما فى اسلوبه وقاسيا مؤثرا فى معانيه ، يبعث الالم والحزن ، حتى لتضيق به احيانا ، ولا تحتل قسوته حين يصل بأبطاله الى أبعد حدود الآلام المتخيلة ، فيجمع عليهم الفقر والبأساء والجوع والعري والحرمان ، وهو الى ذلك كاتب وطنى واجه الانجليز بقلمه فى عنف ومقاله فى الرد على روزفلت حين جاء مصر مشهور وقصيدته فى هجاء الحديو معروفة .



احمد افین



[Faint, illegible handwritten text]

يمثل « أحمد أمين » مرحلة دقيقة من مراحل تاريخ الادب المعاصر في مصر ، فهو الأزهرى الذى تخرج فى الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى وانتقل من القضاء الى التدريس فى الجامعة ، ثم انتقل الى حياة التأليف والكتابة ، وتعلم اللغة الانجليزية بعد أن ارتفعت سنه ، وترجم منها .

واستبدل العمامة بالطربوش . وسافر الى أوروبا وإلى الشرق وظل مع ذلك « الانسان » المحافظ فى آرائه وأفكاره وحياته . والمنطوى على نفسه . . .

لم يتصل أحمد أمين بالحياة . . ولم يجر فى تياراتها المختلفة بل ظل يعيش فى حياة الكتاب والمفكرين وأعمالهم ، ومن ثم كان لاسلوبه ذلك الطابع الجاف ، الذى ليس له سمت خاص يتميز به ، وخلا أدبه من العاطفة والوجدان ، كما خلا من تلك الروح الفتية الجذابة التى تهز النفس وتأخذ اللب والتى نجدها عند أزهرين آخرين كطه حسين والزيات وزكى مبارك .

... ويرجع هذا كله الى أنه من الكتاب الموضوعيين العقليين ، وهو الى العلماء أقرب منه الى الادباء ، ويرجع هذا الاتجاه الى الدراسات والدوافع الاولى .

فقد نشأ أحمد أمين فى بيئة محافظة دينية كان لها أثرها فى نشأته ، وكانت التربية الازهرية بعيدة الأثر فى أهدافه واتجاهاته ، فلما أراد أن يندمج فى الحياة الجديدة اندمج فيها على طبيعته وبكل مقوماته لم يدع منها شيئاً ، ولم يستطع أن يتحول أو ينتقل على الطريقة التى تحول إليها طه أو مبارك أو على طريقة الزيات ومصطفى عبيد الرازق فهؤلاء يختلفون عنه لانهم سافروا الى أوروبا وأمضوا مراحل دراسة طويلة هناك .

وانما ظل هو ، كما هو « النفس المنطوية » التى تزهد فى الناس ، وتجنح الى العزلة وتعكف على المطالعة والبحث والدراسة .

صحيح ان هذا الاتجاه قد مكن أحمد أمين من أن ينتج انتاجاً عقلياً

غاية فى القوة والوفرة ، وهو ما لم يتح لغيره من كتابنا ، فاذا اتصل بالمجتمع والحياة العامة ، غلبت عليه الافكار المثالية وجعلته غريباً عن المجتمع الى حد ما .

ويغنيننا أحمد أمين فى تصوير اعتزاله للمجتمع حيث يقول «... لقد كانت تربيتنا قاسية عنيفة ، فكان من أثرها الذى نشعر به خجل قبيح ، وضعف فى الحرية الشخصية وقلة ابتهاج بالحياة ، وزهد فى متعتها ، وعدم تفتح النفس لمسراتها ، وكان أبى يكثر من ذكر « الموت » وحقارة الدنيا ، فأكسبنا هذا لونا من الحزن والقناعة فى طلب المجد ، ولكن بجانب هذا الجد فى الحياة والصبر على المكاره والترفع عن صغائر أمور الدنيا لان كبارها قليلة القيمة .. »

ليس فى أدب أحمد أمين شبح للمرأة على الاطلاق ، وعلى أية صورة من الصور حتى ليخيل للباحث انها لم تؤثر فيه مطلقاً، وقد ظل يتحاشاها حتى التقى بالانجليزية التى علمته اللغة .

« .. وعشقت (١) مرة مدرسة لى انجليزية ، كنت أتبادل معها الدروس العربية والانجليزية ، وأحببتها حباً يائسا لانها كانت متزوجة . سعيدة بزواجها ولكن جمالها وجمال عينيها . جعلنى أتمنى يوم درسها وأعدته عيداً ، ولولا أن الدين والعلم كبلانى لكنت أمام المحبين . »

رأيتنى شاباً فى السابعة والعشرين ، أتحرك حركة الشيوخ ، وأمشى فى جلال ووقار وأتزمتم فى حياتى . فلاموسيقى ولا تمثيل ولا شيناحتى من اللهو البريء وأصرف حياتى بين دروس احضرها ، ودروس ألقيا ، ولغة أنعلمها . ورأيتنى مكتئب النفس منقبض الصدر ينطوى قلبى على حزن عميق ، ورأيتنى لا أبتهج بالحياة ولا ينفتح صدرى للسرور فوضعت لى مبدأ هو « تذكر أنك شاب » تقوله فى كل مناسبة وتذكرنى به من حين الى حين .

والثانى أنها رأت لى عينا مغمضة ، لا تلتفت الى جمال زهرة ولا جمال انسجام وترتيب . فوضعت لى المبدأ الآخر « يجب أن تكون لك عين فنية .. » فكنت اذا دخلت عليها فى حجرتها ، وبدأت أخذ الدرس وأنكلم فى موضوعه صاحت فى « ألم تر فى الحجرة أزهاراً جميلة تلفت نظرك ، وتثير اعجابك فتتحدث عنها ؟ » .

ويقول أحمد أمين انه لازمها أربع سنوات واستفاد من عقلها وفنها

(١) كتاب حبلتى .

ثم يعقب على ذلك « ... ولكننى لا أظن اننى استغدت كثيرا من تكرارها على سمعى أن أتذكر دائما أننى شاب » .

ثم تزوج أحمد أمين وظل على طابعه المنفرد . ذلك الطابع الذى يتمثل فى الوحدة وفى الحياة بين الاسفار ، وقد أنكر أهله منه هذا ، ولكنهم قنعوا به أخيرا « ... » وقد صدمت زوجتى بعد قليل اذ رأتنى هادئا غير مرح ، قليل الكلام ، وقد تربت فى بيت مرح .. فظننت انى لا أقدرها ، وانى نادم على الزواج بها ، وأكدت لها أن هذا طبعى كسبته من بيتتى فلم تصدق ولم تطمئن الا بعد طول العشرة ووثوقها من أنى كذلك مع غيرها لا معها وحدها .

« وهى تحتل الصباح وحدها لاعداد ما نأكل ، وتنظيف ما ينظف .. ولكن كيف تحتل المساء أيضا وحدها . وأنا فى غرفة بجانبها أقرأ وأكتب والايام هى الايام الاولى لزواجنا ! »

ولعل هذه الاضواء على الحياة الاجتماعية لاحمد أمين تعطينا مفاتيح أدبه .. وترسم لنا صورة « مالك الحزين » التى رسمها له الاستاذ طاهر الطناحى حين وصفه بأنه يضع على عينيه منظارا أسود .

يقول الاستاذ أحمد أمين فى تصوير نفسيته « رزقت عاطفة تهتز للجمال أيا كان ، سواء كان جمالا طبيعيا ، أو جمالا صناعيا ، أو جمالا فنيا ، ولى حاسة قوية فى سماع الموسيقى وخاصة النغمات الحزينة » .

« أحب الخير للناس وافرح لنجاحهم ورقبهم ، ولكنى مع هذا الحب غيور فبجانب هذا الفرح أغضب اذا أنا حرمت مثل ما نالوا » .

ولكن لماذا آثر أحمد أمين خطة الانطواء فلم يتصل بالاحزاب اتصالا مباشرا ولم يغامر فى السياسة مغامرة كبرى .. وظل بعيدا عنها فلم يبرز بروز كتابها .

هل رأى نفسه لا يصلح لها ؟ يقول : « أعرف أنى جبان بقدر شجاعتى فى قول الحق أخاف التعذيب وأخاف السجن وأخاف الشنق ، وربما كان هذا هو السبب فى أننى أفضل العلم على السياسة ، وربما كان هذا هو السبب فى أننى تخلفت عن زملائى السياسيين حيث تقدموا الى أن كانوا رؤساء وزارات ... »

سافر أحمد أمين الى العراق وسوريا والآستانة والحجاز ، ثم جال

فى أوربا جولة غير قصيرة ٠٠ ولا شك أن هذه الرحلات قد أمدته بسعة الأفق ، ومزيد من العلم والخبرة فقد عاشها على الصورة نفسها التى يحيا فيها بين الكتب دراسة وبحث لا استمتاعا بها ولا تطلعا الى خفاياها ٠

وليس فى آثار أحمد أمين أى فصول عن هذه الرحلات ٠ الا ما كتبه عنها فى كتاب « حياتى » ٠

يصف أحمد أمين طبيعته فى وضوح ، هذه الطبيعة الحزينة المنطوية حين يقول ٠٠٠ « ما أخرجنى الى ضحكة تخرج من أعماق صدرى فيدوى بها جوى ٠ ضحكة حية صافية عالية ٠ ليست من جنس التبسم ٠ ولا من قبيل السخرية والاستهزاء ٠ ولا هى ضحكة صفراء لا تعبر عما فى القلب ٠ وانما أريدها ضحكة أمسك منها صدرى وأفحص منها الارض برجلي » ٠

هذه الطبيعة هى التى يرسمها اتجاه أحمد أمين الى العلم والى الدراسات العقلية التى تصل الى ذروة قوتها فى « فجر الاسلام » وهو « الكتاب الذى أتعبه لانه الاول من نوعه » ٠

وقد بدأ أحمد أمين الكتابة باكرا ٠ كتب فى السفر سنة ١٩١٨ وأيد مذهب السفر فى قوة ، ودافع عن رأى قاسم أمين ، وقال عن الجامعة انها أزهر بقعة ٠٠ لقد كره الأزهر منذ رأى الطلاب وهو يعرضون الخبز للبيع ، وعاد الى بيته والهم يملأ قلبه فقد كان هذا أول ما شاهده فى الأزهر ولكن بالرغم من نفور أحمد أمين من الأزهر وكراهيته له واتجاهه الى الثقافة الاوربية ٠ هل استطاع حقا أن ينتزع نفسه من الأزهر ؟ ٠٠٠٠ كلا ٠ « ان كل ما فيه من خير انما مرده الى الأزهر » كما قال عنه الامام المراغى ٠

لقد أكسبته طبيعته هذا المزيج من البيئة والأزهر ، طابع البطء فهو « يجب أن يتحرك على مهل ويتذوق على مهل ويستطعم ما يأكل ، وهو يحب النظام حبا شديدا ٠٠٠ »

انه لم يصنع نفسه ، على حد قوله ٠٠٠٠ « لقد عمل على تكوينى الى حد كبير ما ورثت عن آبائى ٠ والحياة الاقتصادية ، والدين واللغة وأدبنا الشعبى ونوع التربية ٠٠٠ ان نفسى من صنع الله عن طريق ما سنه من قوانين الوراثة والبيئة ٠ »



مطوفى مارقارافى

« وأنا على كل أحوالى انما أنظر الى الجمال كما أستنشق العطر يكون متضوعا فى الهواء . لا أنا أستطيع أن أمسسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت منى ثم لا يدفعنى اليه الا فطرة الشعر والاحساس الروحاني ، دون فطرة الشر والحيوانية ، ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة ، أكبر منها ، غير أنه هو منها » .

إذا كان لشخصية كل كاتب مفتاح ، ولكل أديب عقدة تتمثل فيها حياته الفكرية فى ذروتها وقوتها، فان ذروة أدب الراجعى ومفتاح شخصيته وعقدة حياته الفكرية والادبية ، شىء واحد هو «الحب» .

فكرة واحدة ، أو حب واحد قام فى حياته فلونها كلها وأحالتها الى دنيا كاملة ممتدة فى أدبه وكتاباتة وفنونه .

ماذا كان الراجعى قبل هذا الحب ، وماذا كان أدبه . هل كان يتأهب لهذا الحدث ويستعد لهذا الدور الذى لعبه القدر فى حياة كاتب برصين العبارة ، بليخ الآداء ؟

أكاد أقطع حين أضغ يدى على قصة الحب التى عاشها الراجعى ، ان خصوماته الادبية ، وكتاباتة الفنية ومؤلفاته . . ومذاهبه فى الاعجاب والخصومة . . وهذه الحلقات المترابطة الممتدة فى كتبه «حديث القمر» رسائل الاحزان ، أوراق الورد ، وحى القلم « انما هى حلقات من قصة واحدة .

وأصدق ما يقال عن «الراجعى» أن نفسه ممثلة فى أدبه ، وان ملاحظه الروحية واضحة فى آثاره وأن حياته مرسومة فى فنه ، ببساطتها وتعقيدها ومرونتها والتوائها ، فهو يعيش فى أفكاره وأحلامه ورؤياه ، ويبدو من وراء معانيه قاتما ، يعرف حين يغضب وحين يرضى .

فاذا بدا هناك بعض الضباب ، فانما هو نتيجة للعوامل النفسية التى تتصل برجل أصم لم يتصل بالناس الا قليلا ، ولم يصل لمكنون أعماقهم الا فى حدود محدودة ولم يلتمس نموهم الا عن طريق قصاصات من الورق تكتب له .

وليس الدفاع عن الدين واللغة في ذاته إلا جزءا من كيان هذه الشخصية وجانباً من التعبير عن النفس فيها .

وآثار الرافعي كلها تكشف عن نفسية مضيئة مشرقة ، تفهم الحب فهما دقيقا وتصوره تصويرا قل أن يتاح إلا للحب عركه الحب ، ولمس أعماقه ومس شغاف قلبه .

ليس للرافعي تاريخ الا قصة حبه ، فقد بدأ حياته شاعرا ثم تحول الى النشر وكاد أن يقصره على « فلسفة الحب والجمال » يصور به عواطفه ويرسم مشاعره ، بل اننا لنذهب الى أبعد من ذلك فنقول انه في سبيل الحب ، أقام خصوماته الأدبية ، ولأجله أنشأ المعركة بين القديم والحديث فحمل لواءها وكان بطلها ، وكان عنيدا في صراعه وفي خصومته .

ويبدو هذا الصراع قويا حين يتصل بشخصين ، هما طه حسين والعقاد ثم يتبلور الرافعي في صورته النهائية القوية ، حين يتصل بالرسالة ويكتب فصوله « وحى القلم » .

وللرافعي أسلوب يدل عليه ولو اختفى اسمه ، وهو ما لم يتوافر لكثيرين ، ويتميز هذا الاسلوب بالعمق والغموض .

وقد تأتي له هذا الاسلوب البليغ العميق الغامض ، من بيئة العلم والفقه والدين التي نشأ فيها حين تفتحت حياته على كتب الادب القديم ، اذ أتاحت له آفته أن يعتكف ، فقرأ فنون البلاغة واللغة والفقه . . . فانتقادت له حتى استطاع أن يصول أقطابها واذا به يرى مدافعا عن القديم ، وهو الذي تعلم في مدارس الفرير ، على حين وقف بعض الازهرين في صفوف المجددين .

كان الرافعي يحس بالنقص الطبيعي في سماعه فكان يعوض ذلك بالتبريز في ميدان الحياة بالحب وفي ميدان الادب بالصراع .

يرسم الرافعي لنفسه في رسائل الاحزان صورة واضحة . . « أما هذا الصديق فأعرفه أسلوبا في الكبر ، ولكن على نفسه ، ومن الشذوذ ولكن على نفسه ، كأنما فتحت أفواه عروقه حيننا ، وملائتها الوراثة من دم ملك كان في أجداده ، مستصعب شديد المراس ، اجتمع في تاريخه انسان بلغ الزمن تحت عينيه نيافا واربعين سنة ، فهو تاريخ احزان قد استفاضت مسائله في فصول وأبواب ، جف القلم منها على نيف وأربعين جزءا »

كلماتها فى حوادثها ، وأن السطر منها ليرعد فى صحيفة من الغيظ وأن الكلمة لتبكي وأن الحزن ليثن أنينا يسمع .

جننا الى هذه الحياة غير مخيرين ، ونذهب غير مخيرين ، ان طوعا وان كرها فمد يدك بالرضا والمتابعة للاقدار أو انتزعها ان شئت فانك على الطاعة ما أنت على الكره ، وعلى الرضا ما أنت على الغضب ، ولن تعرف فى مذهب القدر ، اذ انت اقبلت أو ادبرت أى وجهيك هو الوجه فقد تكون مقبلا والمنفعة من ورائك . أو مدبرا والمنفعة أمامك » .

ويرسم صورة حبه « ٠٠ بلغ من العمر أربعة عقود ، ولكنه يحس منذ الصغر أنه رجل هرم أو كما يقول الفلاسفة فى تعليل ذكاء الاذكيا انهم يتذكرون ما يرونه ولا يتعلمونه لان فيهم نفوسا خرجت من الدنيا كاملة ثم رجعت لتزداد كمالا ، غير أن هذه الأربعين بما تاورت عليه قد هدم بعضها بعضا .

كانت حياة صديقى ليلا طويلا انبسط على فنن من الظلام كأنه مورك بالسحب والغمام السود لا ينقشع بعضها عن بعض ، حتى كان صباحه مات فيها اربعين سنة ثم انبعث آخرا من وجه فتاة أخيها فأشرق له من غرتها واستضاء على وجهها .

هى بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته ، كانا فى الحب جزئين من تاريخ نشر منه ما نشر وطوى ما طوى ، هدمت الاقدار هذا الصديق فجاءت هى تبنيه وتشد منه وترمم بعض نواحيه المتداعية وتقيه بسحرها بناء جديدا .

فاذا تعرض لفلسفة الحب ، رسم صورة جبارة ، لا ادرى كيف افلتت من معارضيه دون سجال وصراع .

« ٠٠٠ وذو الفن لا يفيد من الحب فائدته الصحيحة الا اذا جعلت تحت عقله فيكون فى حبه عاقلا بجنون لطيف ، ويترك العاطفة تدخل فى التفكير وتضع فيه جمالها وثورتها وقوتها ، ومن ثم يرى مجاهدة اللذة فى الحب هى أسمى لذاته ويعرف بها فى نفسه ضربا الهيا من السكينة توليه القدرة على أن يقهر الطبيعة الانسانية ويعرفها ويبعد فيها عمله الفنى العجيب .

والرجل الكامل ، والفكر المتخيل اذا كان زوجا وعشيق ، أو كان عشيقا وتزوج بغير من يهواها ، استطاع أن يبتدع لنفسه فنا جميلا من مسرات الفكر لا يجده العاشق ولا يناله المتزوج ، وانه ليرى زوجته من

الحبيبية كالتمثال جمد على هيئة واحدة ، من هذا المفكر العاشق يحتاج الى الزوجة كما يحتاج الى العشيقه فهو فى قوته يجمع بين لزامة هذه وقدسية تلك ، لان احدهما توازن الاخرى وتعديلها فى الطبع وتخفف من طغيانها على الغريزة وتمسك القلب أن يتبدد فى جوه الخيالى » .

وللرافعى فلسفة فى الحياة ، تحصل طابع التشاؤم كأنما ينظر صاحبها الى الحياة بمنظار أسود .

« ما أتينا الى هذه الدنيا الا ليتمثل كل منا فصلا من معانى الشقاء فى تلك الثياب التى هى ملك لصاحب المسرح لا نخلعها ونلبسها ، بل يخلعها بعضنا ليلبسها بعضنا الآخر والرواية موضوعة تامة قبل تمثيلها ، وضعها ذلك القلم الأعلى .

والمشكلة الانسانية الكبرى أن كل انسان يريد أن يكون بطل الرواية وممثلها البكر . والقوم والقدر والموت كالشيء الواحد » .

هذه الفلسفة منبعثة من احساس بالحرمات من الحب ، ومن ألم صادع مصدره ذلك الشقاء الذى ظل الرافعى يحملها فى أعماقه طوال حياته ، منذ ذلك اليوم الذى ذهب الى صاحبتة فرأها قد جلست الى (شاعر) تحدثه ويحدثها .

فلما طال انتظاره ، مضى على وجهه وأرسل كتاب القطيعة .

وارسلت صاحبتة تعتذر له ، ولكن الرافعى مضى فى طريقه ، وأصر ثم أحس بعد انه كان مسرفا . . ومن يومها عاش الرافعى فى غمرة من الشوق والالم والبغض لاتنجلي عنه .

« وما (١) عرف الا من بعد أنه يحبها حبا لا يطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس انسان ، وما عرف الا من بعد انها كانت تجافيه لتطلب اليه أن يكون فى الحب أجراً مما كان ، وعرف وعرفت . . ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء المتكبر ، وظل وظلت . . وبينهما البعد البعيد . . على هوى وحنين حتى جاء الموت فحل العقدة التى استعصت على الأحياء » .

ويصف هو هذا الحب . . « كان حبنى اياها حريقا فى الحب فمثل

(١) سعيد العريان فى «حياة الرافعى» .

لعينك جسما تناول جلده مس من لهب فتلسع هذا الجلد هنا وهناك من
سلخ النار ، وظهر فيه من آثار الحرق لهب يابس احمر ، كأنه عروق من
العجم انتشرت فى هذا الجسم .

والحب - ان كان حبا - لم يكن الا عذابا فما هو الا تقديم البرهان
من العاشق على قوة فعل الحقيقة التى فى المعشوق ، ليس حالة منه فى
عذابه الا وهى دليل على شئ منها فى جبروتها .

ولما رأيتها أول مرة ولمسنى الحب لمسة ساحر ، جلست اليها أتأملها
واحسنى من جمالها ذلك الضياء المسكر الذى تعربد له الروح عريضة كلها
وقار ظاهر ، فرأيتنى يومئذ فى حالة كغشية الوحي فوقها الادمية ساكنة
وتحتها تيار الملائكة يعب ويجرى .

ويصف الاستاذ سعيد العريان حب الرافعى فى أكثر من موضع فى
كتابه « حياة الرافعى » قائلا « ان الحب عند الناس هو حيلة لايجاد النوع
ولكنه عند الرافعى حيلة النفس الى السمو والاشراق والوصول الى الشاطيء
المجهول ، هو نافذة تطل منها البشرية الى غايتها العليا وأهدافها البعيدة .

كان يحبها حبا عنيقا جارفا لا يقف فى سبيله شئ ، ولكنه حب ليس
من حب الناس ، حب فوق الشهوات ، وفوق الغايات الدنيا ، لانه ليس له
مدى ولا غاية لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع
الشعر وصفاء الروح وقد وجدهما ولكن فى نفسه لافى لسانه وقلمه .

وأحس وشعر وتصورت نفسه الآفاق البعيدة ولكن ليثور بكل ذلك
دمه وتصطرع عواطفه ولا يجد البيان الذى يصف نفسه ويبين عن
خواطره .

لقد أحبها جهد الحب ومداه حبا أضل نفسه وشرذ فكره وسلبه
القرار ، ولكنه حب عجيب ليس فيه حنين الدم ولكنه حنين الحكمة الى
الحكمة وهفوة الشعر الى الشعر وخلوة الروح الى الروح .

و .. كان يحبها ليجد فى حبها ينبوع الشعر فما وجد الحب وحده
بل وجد الحب والالم وثورة النفس وقلق الحياة .. وجد فى كل أولئك
ينابيع من الشعر والحكمة تفيض بها نفسه وينفعل بها جنانه ويضئ بها
فكره وكان آخر حبه الالم ، وكانت آلامه أول قدحة من شرارة الشعر
والحكمة .

وظل الرافعى يحب صاحبتة « انه ليس معى الا ظلالها .. ولكنها

ظلال حية تروح وتجيء فى ذاكرتى • وكل ما كان ومضى هو فى هذم
الظلال الحية كائن لا يفنى » •

وكان يحس بندغ الحب بعد مضى ثلاثة عشر عاما طوالا •• فيقول
«انها حماقتى وكبريائى •• ليتنى لم أفعل •• ليت » •

وأنشأ الرافعى «رسائل الأحزان» فى وقدة الحب وغمرته • ثم أنشأ
«أوراق الورد» بعد أن تحول الحب الى حزن مقيم فى أعماق النفس ، وكان
حسبه من هذه الكتب أن تقرأها صاحبتة ، ولعل من آثار هذا الحب ، هزم
المعركة الضخمة التى اندلعت بينه وبين العقاد ، وامتدت آثارها الى المدرسة
الحديثة •

« لقد (١) وضعك حسنك فى طريقى موضع البدر ، يرى ويحب
ولا تناله ولا تعلق بنوره ظلمة نفس » •

« ومحت (٢) صورتها من ماضيه كل ما كان فى أيامه وكل من عرف
لتملاً هى نفسه بروعتها ودلالها وسحرها ، وانتزعها هو من أيامها » •

ونظر الرافعى إليها والى نفسه وراح يحلم ، وخيل اليه انه يمكن أن
يكون أسعد مما هو لو أنها •• كانت زوجته •• ثم عاد الى نفسه يؤامرها
فأطرق فى حياء •

وقالت له نفسه وقال لنفسه : فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن
يراه من قبل بعينى العاشق ، وأوشكت القصة أن تبلغ نهايتها وتحل
العقدة •• ثم جاءت كبرياؤه لتخط الحاتمة •

ولكن الرافعى بعد أن فقد صاحبتة ، تفتح للحب ، فعاش له ، كان
يحاول أن يملأ فراغ نفسه ، ولكنه فيما يبدو لم يستطع •• فقد أراد أكثر
من مرة •• أن يعيش فى حب جديد ، ولكنه كان أبدا مشدودا الى حبه
الاول •

عاش الرافعى حياته للحب ، كانت «مى» هى المنار القوى السامق
الذى يبدو له من كل مكان ، وهو بين عواصف البحر ولججه •• ورأى
فى وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين تلك المعانى السامية

(١) الرافعى •

(٢) سعيد الغريان •

كمراة المرصد السماوى فكل ما فى رسائله من البيان والاشراق هو نفسها
.. وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه (١) .

ولعل فشل الرافعى فى حبه .. هو الذى دفع رأيه الى أن يسوء فى
المرأة .. والمرأة من هؤلاء لايمشى أمرها فى الناس ولا يتصل عيشها الا
إذا كثرت ثيابها فهى تخلع وتلبس من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالة
ولكل رجل ، فينبعث منها الغضب ... وهى فى أنعم الرضى ، كما ينبعث
منها الرضى وهى فى أشد الغيظ .

« فهى تبرز حين تخرج من بيتها لا الى الطريق ولكن الى نظرات الرجال
وتظهر حين تظهر بصورة لايتلوين نفسها مما يجوز ومما لايجوز ، ولكن
يتلوين مرآتها مما يعجب وما لا يعجب » .

وقد أثير سجال فى «الرسالة» بين تلميذين من تلاميذ الرافعى حول
حب الرافعى قال فيه الاستاذ حسنين مخلوف : ان الرافعى أراد أن يحدث
فى اللغة العربية لونا من الفن المزوج بالفلسفة الاجتماعية التى تقوم على
ايجاد المرأة على النحو المستفيض فى الأدب العربى فطلب الحب لذلك ..
أما الاستاذ كامل محمود حبيب فىرى أن الرافعى شعر بجفاف قلبه لشدة
تدينه فطلب الحب ليندى به قلبه ويرقق أسلوبه ، ويرى الاستاذ سعيد
الريان أن الرافعى بكبريائه ودينه واعتداده بنفسه ، لم يخلق للحب ،
ولكنه أحب ، فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام وصراعا دائما ، ومقطع
القول فى كل هذا ما أردنا فى أول الفصل عن فلسفة الرافعى فى الحب
وهى ايمانه فى الجمع بين الزوجة والحبيبة .

والرافعى الى هذا رجل مستقيم الفكر يفرق بين الفن والدين ، فهو
إذا تحدث عن الادب أوالفكر قال انه يكون رجلا قد طغت فيه الحياة طغيانها
الشديد المجتاح ، ثم يكون الفن طاغيا فيه طغيانه الحياى العنيف المتمرد ،
وهذا لا يصلح زوجا ولا تصلح الزوجة له ، فانه انما يريد المرأة المغلة كأنها
ضيعة من الفن الحى ، تغل عليه من ثمراتها ، وقد أبى الشيطان لعنه الله
الا أن تكون المرأة المغلة فى الفن امرأة محرمة .. ومتى كان الشيطان فى
الامر استطاع أن يجعل لكل امرأة فنا على حدة .. ومن هنا فسوق الكتاب
والكثرة من العباقرة .. وهذا سر تعزيهم وانصرافهم عن الزواج أوانصراف
الازواج عنهم وهؤلاء بركة على الفن ولكنهم بلاء على الدين وعلى الفضيلة .

ومن سخرية الحياة فيهم أن يكون العبقري فيهم هو من ناعيسة أخرى
الحيوان العظيم .

فاذا أردنا أن نرسم شخصية الرافعي على ضوء هذه الصورة وغيرها
من صور حياته وجدناه مثلاً لعزة النفس وكبريائها . . وقد عاش طوال
حياته في حدود دخله الضيق ، ولم يفد من الانتاج الادبي فائدة تذكر .
فقد كان أدبه من ذلك النوع الذي لا يؤدي الى الثراء .

بل لعل انشاء هذا الادب الجديد الذي كتبه في الرسالة انما جاء
نتيجة للاضطراب حين أراد أن ينفق على ابنه في بعثته في الخارج .

ولم يسافر الرافعي الى خارج مصر ، وانما عرف بحبه للانتقال بين
المدن المصرية وكان يجد في الانتقال لذة ، يغذى به عاطفته ويمد أدبه .

وهو يؤمن برسائله الادبية « . . القبلية التي أتجه اليها في الادب انما
هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها ، فلا أكتب الا ما يعيشها حبه ويزيد
من حياتها وسمو غايتها ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ، ولذا
لأمس من الآداب الا نواحها العليا ثم انه يخيل الى دائماً : اني رسول
لغوى للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه » .

وقد قرأ الرافعي في فجر شبابه لجمال الدين الافغانى ومحمد عبده
وغوستاف لوبون وتأثر بهم ، ويرى أن كتابه «أوراق الورد» هو خير
كتبه « لانى لم أتعب في شيء مثل تعبى فيه وربما بيضت الرسالة الواحدة
في أربع ساعات لأن الغرض هو اعطاء العربية هذا الكنز الذي ليس
فيها » .

وقول الرافعي انه انما يريد ابتداء لون جديد من فلسفة الحب
والجمال في الادب العربى انما هو تبرير لنشر هذه الرسائل في الوقت
الذى كانت فيه الكتابة عن الحب معدودة من المحرمات ، أو مما لا يليق
بكتاب الدين والادب الرفيع .

وقد استطاع الرافعي تحت هذه الظلال أن ينفذ الى غرضه وان يترك
نروة ضخمة من هذا اللون الذي تحرز من الكتابة فيه من كانوا في نظر
القراء أقل محافظة وأكثر جرأة .

وليس من شك أن الرافعي كان مخلصاً لأمانته وفنه ، فقد كان
يسكب روحه على الورق ، ويصدر عن نفس مؤمنة ، عميقة الايمان والاقتناع ،

ولعل العقص الطبيعى فى حاسة سمعه كان يدفعه الى أن يداور المعنى ليسلس له أو ليحمله أشد وقعا فى أذن القارئ وفى نفسه .

ولقد عرف « الرافعى » بالقوة البالغة فى ميدان النقد حينما يتصل ذلك بأدبه ، عرف ذلك فى موقفه من العقاد ، وطه حسين ، وزكى مبارك ، وقد داعبه « الزيات » فى هذا حين كتب رده العنيف على « عفيفة السيد » اذ قال انه أراد أن يمسك قلم أوراق الورد ليكتب رده ، خطأ فأمسك قلم « على السفور » .

ولكن يبدو أن « طاقة » الرافعى الناقدة كانت ضخمة جدا لو أنه استطاع أن يجد المجال لها ، وفى خطاب منه الى الاستاذ محمود أبو ريه « كل ما أتمناه من زمن بعيد هو أن أتفرغ لمقالات فى النقد نحو سنتين أو ثلاث تهدم العصر كله من جميع نواحيه الضعيفة وتبنى عليه أدبا جديدا » .

وكان رأيه فى الصحف سيئا .. « لو عرفت يا أبا ريه الصحف وأهلها لرأيت أن العمل فيها من أشق الاعمال على النفوس الكريمة فهذه ليست صحفا ولكنها حوانيت تجارة » .

والرافعى سيئ الرأى فى المنفلوطى .. « فان حياة هذا الرجل كانت كلها موت له فصار موته كأنه حياة تبعث على الرغبة فى قراءة ما كتب » والرافعى على شماسه وعصبيته كان حريصا وكان يعرف ما يطلقون عليه اسم الكياسة واللباقة . يبدو هذا فى خطابه الى الاستاذ محمود أبو ريه .

« واعلم انى لو نظمت رثاء الشهيد فريد بك كما يجب أن ينظم وفى المعانى التى تليق به لرأيت فى الصحف خبر نقلى الى قنا أو مادونها فترك الشر ساكنا أجمل بى » .

وقوله : « دار الكل .. فان اتقاء الضرر كجلب المنفعة فاجعلها قاعدتك » .

وغاية القول فى « الرافعى » انه كان على رأس مدرسة جديدة لا شك فى جدتها وقوتها ، فى انشاء هذا اللون الوجدانى ، وجديدة فى صراحتها وجراتها فى النقد .



جبران خليل جبران

عاش جبران خليل جبران حياة يلفها غموض وسحر وبريق ولهب وحب ، هذا النحيل الذي كان يرسم ويكتب ، ويطوف ببلاد أوربا وأمريكا ويكتب بالانجليزية والعربية ، ويعيش فى برج عاجى فى قلب بلاد المهجر ينشئ فناً جديداً من فنون الكتابة فى الادب العربى يتحرر به من قيود اللغة والادب ، ويضرب فى سبيل جرى .

هذه الحياة القصيرة ، التى عاشها جبران ، كان الحب والألم عنصرها الخالدان ، ومنهما استمد الادب عنده حياته وحرارته ، وأحب أول ما أحب فى هذه الدنيا « أمه » أحبها بعنف وحرارة غير معهودة .

« أمى ، ان أعذب ما تنطق به اللسنة هو لفظ الأم ، واجمل مناداة فى الوجود هى « يا أمى » كلمة صغيرة كبيرة ، مملوءة بالامل والحب والانعطاف الأم هى كل شئ فى هذه الحياة ، هى التعزية فى الحزن والرجاء فى اليأس ، والقوة فى الضعف ، هى ينبوع الحنان والرأفة ، فالذى يفقد أمه يفقد صدرا يسند اليه رأسه ويذا تباركه وعينا تحرسه ، كل شئ فى الطبيعة يرمز ويتكلم عن الامومة ، فالشمس هى أم هذه الأرض ترضعها بحرارتها ، وتحضنها بنورها ، ولا تغادرها فى المساء الا بعد أن تنومها على نغمة أمواج البحر ، وترنيمة العصفير والسواقي ، وهذه الأرض هى أم للأشجار والازهار تلدها وترضعها ثم تغطمها » .

عاش جبران للحب ، وعرفه بكل ملذاته وآلامه . . « الحب كوتر تسكبه عرائس الفجر فى الارواح القوية فتجعلها تتعالى متجمدة أمام كوكب الليل وتسبح مترنحة أمام شمس النهار » .

ولقى فى حياته موكبا من النساء ، فى باريس ، وبيروت ، وبروكسل ولندن ، وبوسطن .

لكن المرأة الأولى ظلت تقيم فى أعماقه لاتبرحه . . « سلمى كرامة » المرأة التى أحبها فى سن الثامنة عشرة . . المرأة التى علمته عبادة

الجمال ، وأرته خفايا الحب .. وختمت قصتها بالمأساة ، حين أرغمت على الزواج برجل آخر وماتت وهي تضع أول ثمرة من أحشائها .

» (سلمى كرامة) المرأة الأولى التي أيقظت روحى بمحاسنها وعلمتني عبادة الجمال ، وأرغمت على الزواج برجل آخر » .

كان فى قلب جبران وعقله شىء واحد ، هو الفن : على صورة من الرسم أو ورقة من الكتابة ، كلاهما سيان عنده ، ولما قصد الى بيروت ليدخل مدرسة الحكمة ويتعلم العربية وأحس بالفشل ، ذهب الى باريس ليدرس الفن .

شاب فى العشرين من عمره ، يرتاد متاحف اللوفر ، ويشاهد آثار ميكلائجلو ورمبرانت وروبنسن ، وفى العام التالى (١٩٠٤) عاد الى بوسطن حيث وجد أمه وأخوته فى أشد حالات الألم ، ومات بطرس وماتت الأم بالسل ، وبقيت أخته مريانا تنفق عليه من ابرتها .

وتقاذفته عواصف الحياة ، واندفع يعب من تيارها «اننى أمشى دواما على هذه الشواطىء بين الرمل والزبد ، يجىء المد فيمحو آثار قدمي وتهب الرياح فتثير الزبد هباء ولكن البحر والشاطىء باقيان الى الأبد » .

وعرف الحب فى صورة أخرى غير صورة سلمى كرامة ، وقال عنه « انه كوثر تسكبه عرائس الفجر فى الارواح القوية فيجعلها تتعالى متجمدة أمام كوكب الليل ، وتسبح مترنحة أمام شمس النهار » .

عرف «مارى هاكسل» .. ووجد فيها ذلك الملاك الذى كان يفتش عنه منذ سنوات ، وجد الصورة الحية فى أعماقه ، أعجبه فيها ذوقها وفهمها للفن ، كانت تحبه متجردة للحب ، لم تكن تتمنى الا أن تأخذ بيده الى المجد ، كانت تؤمن أن لكل فنان ملهمة ، فأرادت أن تكون ملهمته ، يقول ميخائيل نعيمة « ولم يخطر له ولا لمارى هاكسل ان الحائك الاكبر قد التقط بمكوكة العظيم خيطى حياتهما ليتابع حياكة النسيج الذى بدأ به منذ الأزل على منواله السرمدى » .

وعرف ميشلين ، كانت فى عينه ملاكا فى صورة امرأة ، فى العشرين من عمرها ، فيها طهارة الطفل وابتسامة الزهر ، « جميلة تمشى كأن فى رجليها أجنحة وفى قلبها سلطانها لاعقلها ، بلا ادعاء ولا كبرياء » ، وربط الحب بينه وبينها بالروح والجسد ، ورمته بالانانية لانه رفض الزواج بها واتهمته بأنه لايعرف الا نفسه .

وظل حبها يصارع حب ماري هاكسل في نفسه ، وكان صراعا طويلا جبارا وصفه بقوله « كان حبي للآنتين خالصا وفيها ، أحببت ماري هاكسل لتجردها من الرذائل وكرم نفسها وذوقها السليم فقد أحببتني ولم تطلب مني شيئا ، وأحببتها ولم أطلب منها شيئا وأمدتني بالمال وفي وقت حاجتي لها . ولم تكن لها أمنية الا أن تراني أرتقى مدارج الشهرة والمجد والكمال الفني في الرسم ، أما المرأة الثانية فقد أحببتها لجمال روحها وجسدها أحببتها لوفائها وأنوثتها وطاعتها . كانت ماري أكبر مني ومثليين أصغر مني سنا » .

وعرف اميلي . . كانت زميلته في المدرسة ، وكانت آية في الجمال والروعة لقد فتنه منها انها قالت له عندما رأت لوحته عن البحر ، الفن هو أن تأتي بضمير البحر لا أن ترسم أمواج مزبدة أو مياه زرقاء هادئة ، وكانت مثال البساطة والصرامة تغلب العقل ولا تعرف الشهوات .

وأحب «مي» دون أن يراها أو يعرفها ، كان يحس أن روحها أخت روحه «سكب كل منا روحه في رسائله الى الآخر» .

وارسلته ماري هاكسل الى باريس على نفقتها ، وعاش طالبا في البوزار في الحي اللاتيني يفكر في المرأتين اللتين تركهما وراءه ، ويقول ياليت روح ماري كانت في جسد ميشلين وجاءته ميشلين . . من وراء المحيط ولكنها سرعان ماتختلف معه وتهرب عند مآثرى انه لا يريد لها حظية له .

وأضى ثلاث سنوات زار خلالها روما وبروكسل ولندن ومتاحفها وأثارها الفنية وعاد الى امريكا ليبدأ حياة جديدة غير واضحة المعالم ، وكان خلال اقامته في باريس قد أنشأ كتابيه « عرائس المروج » و « الأرواح المتمردة » .

كان يطمع في أن يفتح الفن والادب امامه آفاق الحياة فيريح مريانا من الابدرة ، لايزال يحب ماري ، وكانت هي تقدر مواهبه وتفهم أشواقه ومطامحه ، ففكر في أن يتزوجها ليضع لحياته قاعدة تدفعه الى التفرغ لعمله ، وقد وصف ميخائيل نعيمة حبها بقوله : « كانت تحبه حتى لتحس بخمر جديد تدب في افكارها عندما تجلس اليه » . فلما عرض عليها رغبته في أن تتزوجه قالت له : وهل أنت نظيف ، « وانقلب من حمل وديع الى أسد جريح ، كان يظن أن حبها له أرفع من محبة الذات » .

وتعاطفا وبدا أن حبهما قد تحطم ، ولكنها مع ذلك ظلت تبعث اليه بالحوالة ذات الخمسة وسبعين دولارا .

وفى ضوء هذه الحياة المليئة بالحب والعواصف والآلام والمتاعب أنشأ جبران أدبه ، كانت قراءته فى الادب الغربى ورحلاته المتعددة ، وحياته المضطربة ، هى التى صنعت أدبه المتمرد الملىء بالحرية والصراع والثورة .

لقد احب نيتشه وفتنته دعوته الى الانسان الاعلى ، وكادت معرفته له أن تطفى على معرفته لجميع الادباء والشعراء ، حتى لقد قال : ان معرفته لنيتشه قد جعلته يخجل من آثاره التى قدمها قبل أن يعرفه .

وفى هذا الاتجاه يقول « ان الدموع تليق بآقى النساء . أما أنت فدعك منها » واندفع يحرق نفسه وأدبه من الدين ، حتى رمى بالكفر . لقد انكر الاديان واتجه الى الانسانية العليا .

« لقد حررت عواطفى من عبودية الشرائع لأحيا بناموس المحبة ، وحولت وجهى نحو الشمس لئلا أرى جسدى بين الجماجم والأشواك ، ان شرائع الزواج كما يطبقها الناس هى من صنع الرجل ، اما الحب الذى يريدون ان يجعلوا الزواج تاجا له واكليلا فهو من صنع الله ، فالكاهن الذى يبارك لن يطرد الحب من قلب يقيم فيه ولن يدخله الى قلب خلى »

وهو منذ شبابه ثائر متمرد ، لا يحب الاعتدال : « أحب من الناس المتطرفين أحب القادرين على الهبوط الى لجج الحياة والصعود الى اعاليها ، أحب الذين يميلون بكليتهم الى وحدانية الامور فلا يقفون مترددين بين نقيضين . أحب النفوس الطامحة بمرام كاتب قوى ثابت . وأهوى الارواح البسيطة » .

« أحب المتطرفين المتحمسين الملتهبين ، ! ! ! يستسلمين الى عواطفهم المنصرفين الى مبدأ خاص ، المتحولين عن اختلاط الافكار الى فكرة أولية مجردة ترتفع بهم الى ما وراء الغيوم وتنحدر بهم الى أعماق البحار » .

وهو فى الحب يبغى التطرف : « من يعتدل فى حبه لا يشرب من كأسات الحب خلدا مبردا ولا مرا حاميا ، ومن يعتدل فى دنياه يبقى حيث ولدته أمه ، فلا يتراجع الى الوراء ولا يخطو الى الامام ، أحب الذين احرقوا ورجموا وشنقوا وقضوا بحد السيف من أجل فكرة امتلكت عقولهم أو عاطفة أشعلت قلوبهم » .

وكان جبران بهذه النفس الثائرة العاصفة يحب العواصف والاعاصير
والامطار المنهمرة والاشجار التى تتمايل وتضطرب اغصانها •

وكان من جرأة رأيه أن حرّمته الكنيسة من حقوقه وحكمت عليه
بالنفي لانه كان انسانيا فى الدين فلا يراه فى حدود الطقوس والمزامير •
وهو مغال فى رأيه ، يميل الى الغرابة ويكره السهل واليسير
والرأى المطروق وطبيعته لا ترضى بالطريق المسلك •

« اريد ان انصب تمثالا للجمال لا للحرية لان الحرية هى التى
يشعلون الحرب تحت قدميها ، اما الجمال فهو الذى يمد الناس أيديهم
اليه رمزا للاخاء والحب » •

ومضى جبران يشق طريقه ، ويكتب رسائله ، ومن ابرزها فى هذه
الفترة كتاب « النبی » الذى صوره فيها على هيئة « زرادشت » التى خلقها
نيتشه ، وان كانت شخصية النبی هى خلاصة أفكار جبران ذاته •

يقول ميخائيل نعيمة انه بعد سنة ١٩٢٠ اشرف على فجر حياة
جديدة وأن العواصف التى أثارها نيتشه كانت قد بدأت تهدأ ، وان
جبران الذى انسلخ عن نفسه المؤمنة بجمال الحياة وحكمتها قد عاد يبحث
عن تلك النفس وينبشها من لحدّها ليجد معها موافيقه •

وأخذت الشهرة وعلامات المجد تملأ حياة الفنان الكاتب • فتزايد
زوار صومعته وتكاثر المعجبون به وأكثرهم من الجنس الآخر ، وبدأت
علامات الشراء تغمره وانطوى منه الادب الجرىء ، وبدأ أدب المجاملة حيث
يصفه نعيمة بقوله : « ولما أحس بالمجد والعظمة على ألسنة الناس لم يعد
فى استطاعته أن يكوى تلك الالسنّة بنار نقمته وسخريته بل صار يبذل
كل جهده ليكون عند حسن ظن الناس ، وكلما ازداد توفيقا فى هذا
القبيل اشتدّ عنف الحرب الناشبة بين نفسه الظاهرة التى يعرضها على
الناس وروحه الباطنة التى كان يستترها عنهم » •

وكان قبلا « يصفع الناس بيد ويصافحهم بالأخرى ، ويشور عليهم
عندما تثوب اليه روحه المتألّمة من كل شفاعة وقسوة وظلم • ويسالّهم
عندما تثور عليه نفسه الطمّاحة الى المجد والعظمة وهكذا انقسمت نفسه
على نفسه » •

ومضى جبران يعمل وينتج . كانت روحه القوية تنازع الداء
وتصارع الألم .

وظل الحب عنوان حياته وقوامها . . كان يحب ويدعو الى الحب
ويتسع حبه للعالم كله وقد شرب كأس الحب حتى الثمالة .

يقول : « عندما تتوثق عرى الصداقة بين رجل وامرأة فيذوقان
معا كأس الحياة مترعة ، تكون منهما ذاتية واحدة ، ويصبحان كمن حمل
وولد ولدا ، له أمل في البقاء والتناسل أو كأنهما نظما قصيدة أو أنشودة
لا تموت ، هناك في عالم الخالق شيء لن يموت لاننا صديقان » .

والحق أن المرأة كانت هي أروع فصل في حياة جبران، هي روح
تلك الحياة ومنها استمد الضياء والفن والالهام .

تقول بربرة ينح صديقة جبران ومؤرخته : « لم يشهد العالم
كله أغرب من جبران ، شرب الكأس حتى الثمالة مره وشهده ، وليس
ثمة عاشق يعتقد به في الوجود يتحدث عن كأس الحب الذي شربه .

كان هناك صنفان من المرأة في نظره ، المرأة التي كانت تحبه
وتخلص له وتتفانى في ولائها ، لان هذا الحب كان وليد الاقرار بالفضل
والاعتراف بالجميل ، كان حبا خالصا . . لا يتطلب منه مجهودا أو بذلا ،
وهناك المرأة التي كان يصف حبها بقوله « تعتقدين اني أحسن مما أنا
حقيقة ، تحبينني شاعرا ورساما ، وتصبو نفسك الى شيء مني كشاعر
ورسام ، اما أنا بالذات فلست تعرفينني ولا تحبينني » .

وعاش جبران حياة البوهيمية المطلقة ، يحس أحيانا كأنه هبط
الى هذه الدنيا من أحد الكواكب . وأنه انسان يعيش على هذه الارض
بغير أسس ، وبغير ماض ، وكأنما كل ما حوله من مظاهر البشر وأشكالهم
واضوائهم غريب عنه .

يقول « عند ما قذفتني أحشاء الغيب فكرة هيولية اجتمعت الكائنات
حولى لتخرجني هيكلًا ينبض بالحياة، قبلتني النجوم بأشعتها فاستيقظت،
ونفتت أزاهير الفصول الهاربة طيبا في فمي فتنفست ، وأنشدت الحياة
والأعاصير أغانيها في أذني فتحركت ، وسرت هينمة النسيم في مفاصلي
فاختلجت ، وظلت موسيقى الكائنات تهددني بين أنغامها المنعشة الى أن
تكونت » .

هذا هو أدب جبران يصوغ المعاني صورا هائلة حاملة ، وقد عرفه بهذا اللون الابتداعي الخالص .

وفي كتاب « النبي » يصور المحبة على هذا النسق الموسيقى الخالم :

« جوهر الحياة واحد وهو المحبة ، وهذا الجوهر يدفع ذاته لكل الناس على السواء ولكن بعضهم لا يسمعه ولا يبصره ، أما الذي يظهر أذنيه من جلبه الحواس الخارجية ويمزق غشاوات الوهم عن بصيرته فليس يسمع أو يبصر من الحياة الا جوهرها الصافي وعندئذ فهو لا يحب بعضها ويكره بعضها ، بل يحبها بكليتها .

الحياة وحدة شاملة تتكسر عليها كل المقاييس الجريئة والفردية والزمانية والمكانية ، وهي في قطرة الماء مثلها في الاقيانوس ، وفي ذرة الرمل مثلها في الجبل .

ولما ارتوى جبران من الجمال والحب والمجد ، بدأ يحس بالانطواء ، وأخذ يكره الحضارة والمدنية الصاخبة العجاجة ، ويحلم بالجبال ، ولقد اتسعت دنياء ولكنه أحس بفقر أحد نابا من الفقر القديم ، ووجده أفسى ملامسة من تلك التي طالما ساورت أيامه ولياليه ، فقد أقفر قلبه من الحب في حين أن النساء كن يحمن حوله ، حو الفراش حول السراج . والشهرة وما اليها من بخور الاعجاب ، قد تخدر القلب حيناً ولكنها لا تطفى عطشه ، ولا تسكن جوعه ولا تؤنس وحشته ، فكيف به اذا كان قلب شاعر وفنان » . هكذا يصفه ميخائيل نعيمة .

لقد جمع جبران في أدبه بين المتناقضات ، ولكنه كان صادقا . ان أدبه مرآة نفسه في تطوره من الشباب العاصف الى الشيخوخة المتمردة ، ومع ذلك فقد كان يرى أنه لم يصل القمة فيقول « ان كرمتي لم تثمر غير الحصرم ، وشبكتي ما برحت مغمورة بالماء » .

وعاش حياته ثمانية وأربعين عاما ، في صراع مستميت مع نفسه ليكون مثالا أشبه بالتمثال المصنوع من المرمر وترك تراثا أدبيا خالدا ، هو لون جديد من الأدب العربي الجريء الحر ، الجريء على قيود الأسلوب واللغة والخيال ، الحر في أفكاره وأدائه ، ولقد صدق جبران حين قال : « جئت لأقول كلمة ، وسأقولها ، واذا رجعت الموت قبل أن ألفظها فاقعد لا يترك سرا مكنونا في كتاب الانهاية » .

وعاد جبران الى الارض التي أحبها . ولكنه عاد جسدا كريما حيث

ثوى قريبا من المكان الذى أحب ، كان ذلك سنة ١٩٣١ ، كنت طالبا فى المدرسة الابتدائية . وانى لأذكر ذلك كأنه وقع الآن ، وكان « الأهرام » يصل الى بلدنا فى الساعة الواحدة ظهرا ، وكنا فى احدى حصص بعد الظهر حيث لمحت اسم جبران فى الصفحة الأولى ينعى الى القراء ، وساءلت نفسى من يكون جبران خليل جبران . ان اسمه الموسيقى قد ملأ نفسى فرغبت الى أن أقرأ له ، وصادفنى أول ما صادفنى له كتاب الاجنحة المتكسرة فرأيت عنده فى ذلك الوقت الباكر شيئا جديدا لم يكن معروفا فى أدبنا العربى ، هذه الطلاقة وهذه الالفاظ المتموجة كأنها لحن موسيقى أكثر مما هى كلام مكتوب .

وبدأت أعرف الادب المهجرى وأقدر مكان جبران فى أدبنا ، وأخذت أدرس هذا الطابع الجديد الذى تميز به أدباء المهجر ولكنى كنت دائما أرى جبران قمة من القمم العالية ، كنت أحس أن وراء معانيه روحا ثائرة متمردة منفصلة ، بها مرارة واضحة ، كأنما يريد جبران للشرق أن يلحق بالحضارة فى دفعة واحدة ، ولا يقدر التطور الطبيعى فهو نائر ، أغلب ثورته على الطقوس والتقاليد الموروثة باسم الدين والتي يسيطر بها الكهان على الناس . . وهذه فى عقله الباطن ترجع الى قصته مع سلمى كرامة ، يوم وقفت هذه التقاليد حائلة دون زواجه بها بعد أن أحبها وكأنما كان هذا الموقف مقطعا فاصلا فى حياته وتفكيره وعقيدته ، فهو قد اندفع فى الحياة يكافح ولكنه لم يانس ما بقى من حياته الى امرأة على كثرة ما عزف من النساء وكأنما وقف ذلك الحب القديم حائلا بينه وبين ممارسة هذا الفن الجميل .

ولعل اندفاعه فى سبيل المجد قد حال دون أن يتم حياته فى هذه الناحية كأي فنان ، وجملة القول أن جبران فى مجموعته علم على الصراع بين الشرق والغرب وبين لبنان وأمريكا ، وبين ظلال التقاليد وحرية الحضارة فى ميادين الأدب والمجتمع والحياة فهو أحد ضحايا التطور ، وأحد روادنا الأوائل ، وقد اتسم أدبه بهذه الحيرة اتسم حياته بها . فقد كان أدبه صورة نفسه وحياته ، لقد حاول أن يعيش فنانا فى قلب أمريكا ، مع ذلك فقد ظل ذلك الانسان الشرقى الكامن من أعماقه يراوده ويصارع ويضايقه ، ويبدو أنه كاد يستسلم اليه فى آخر أيامه عندما خفت حدة الصراع ودخل فى دور الكهولة .



میت زیلا

كانت قصة «مى» فريدة في موضوعها ، لم يتح لها أن تتكرر في تاريخ الادب العربى المعاصر ، فهى مرتبطة اشد الارتباط بالنهضة الجديدة التى جاءت على اثر صيحة قاسم أمين حتى يمكن أن يقال ان « مى » فكرة اكثر منها أنثى ، وعلامة من علامات الطريق أكثر من انها كاتبة عاشت في القاهرة ، وكان لها صالون تستقبل فيه اعلام الادب أمسيات الثلاثاء .

برزت في الوقت الذى كانت المرأة فيه مازالت محجبة ، وكان الهامها لارباب الفكر واهل الادب يكاد يكون معدوما . فكانت «درة» مفردة ، يلتقى في مجلسها طه حسين والعقاد والزيات ومصطفى الرافعى واسماعيل صبرى ويعقوب صروف وولى الدين يكن .

ولعلنا لا نستطيع أن نخلى آثار هؤلاء الادباء من طيف «مى» وروحها اللطيفة فقد أجمع هؤلاء جميعا فيما كتبوا عن « مى » أنها كانت محدثة لبقة موفورة الثقافة بارعة الحديث ، سيدة صالون بحق ، قد أعادت في قاهرة المعز صورة مجددة من مجالس الولادة بنت المستكفى حيث كانت تثار بين يديها مسائل الفكر والادب والشعر والفن وهى بشبابها وجمالها وعبقريتها تدير الحوار في براعة ، وتنقل المحدثين من فن الى فن .

قرأت آيات الأديبين الفرنسى والعربى اذ فتحت عينها على مكتبة والدها الاديب الصحفى ، واكسبتها عاطفتها الحادة اتجاها فنياً فأنشأت لونا جديدا من الكتابة النسوية وأسلوبا يدل عليها وتعريفه فكان أدبها صورة نفسها في احزانها وافراحها وآمالها وآلامها .

وكان أدبها الى ذلك صورة الادب النسوى العربى فى طوره الجديد بعد باحثة البادية وعائشة التيمورية ، وقد كانتا شاعرتين أكثر منهما نائرتين . ولذلك عدت « مى » الرائدة الاولى للادب النسوى الخالص .

وقد أتاحت لها هذه الحرية فى الكتابة والحياة والانطلاق ببيتها اللبنانية الاولى التى تفتحت عليها نفسها وعواطفها ، فهى قد ولدت

فى الناصرة ، وقضت أيام طفولتها فى كسروان وعين طورى ، ثم جاءت الى مصر فجمعت بين روح الجبل وروح النيل ، وبين ادب الانجيل وادب القرآن ، وبين بيان الضاد وبيان الفرنسية ، فكان لها من هذا كله مزاج جميل هو الذى اتاح لها هذا القلم الرشيق الانيق وذلك اللسان اللبق البليغ وهما قلما يجتمعان لاحد الا فى النادر فقد عرف ان الكتاب البارعين لا يكونون محدثين الا فى القليل .

ونحن اذ عدنا الى « مى » وتصورناها تعيش فى القاهرة ، وقد أخذت تذيع أدبها فى الهلال والمقتطف والأهرام وتفتتح صالونها للأدباء والاقطاب رايناها أشبه بروح جميل تنشر الضياء والشذى من حولها الى كل مكان يمكن ان يصل اليه ، والى أبعد مكان يمكن ان يصل اليه ، فقد كان جبران خليل جبران يعيش فى المهجر ومع ذلك كان قلبه يفيض بلون من الحب الروحى الفامض لى ، وكان الراقى وهو يعيش فى طنطا يحس أنه مرتبط بالأوصار بها ، بل ان الامر ليبلغ بالرائعى حد ان تكون هذه الرابطة اعظم خطرا من علاقة صداقة مجردة ، فقد لونت « مى » أدب الراقى كله ، واثرت فى أيام حياته كلها منذ عرفها الى ان قضى .

والحق ان « مى » قد اوحى الى الكثير من الادباء المعاصرين ، وامتد ادبهم بالهامها وتركت روحها وراء كلماتهم .

ولكن « مى » التى كانت تلتقى بالادباء وتفتتح صالونها لاقطاب مصر ومفكرها كانت فى صميم حياتها الخاصة منظوية على نفسها ، كانت حريصة على أن تعيش طويلا فى « برجها » الخاص لا تبرحه . كانت محافظة كثيرة الحيطة والكتمان والاحتراش تؤثر الاعتكاف ولا تغشى دور اللهو ولا تشارك فى مرح الرجال .

ولعل مصدر ذلك غلبة الطبع الشرقى البعيد المدى ، الذاهب فى جذور النفس ، والذي لم تتخلص منه حين تخلصت من مظاهره ، ولكنها الى هذا كانت مصرة على أن يظل لها جوها الخالص ، وكانت لا تقبل النصح أو التوجيه فى تغيير أسلوب الحياة ، وفى رحلتها الى اوربا وعودتها كانت تعكف على نفسها وتنزوى فى ركن من أركان المركب ، لا تشارك فى رقص ولا طرب ولا مرح .

انها من هذه النفوس الحذرة المتشائمة المنظوية ، التى استقبلت

الحياة على صورة لم تسبقها اليها انثى في زمنها ، ثم مضت كالطير الغريب لم تستقر فيه على شجرة أو فنن .

كان الجو حولها على هدوئه صاخبا ، هناك نفوس حيرى كانت تتصل بها وتكاشفها بالعاطفة ، ونفوس أخرى طوت أضالعتها على شوق أو اعجاب ، وتلقت هى رسائل جبران وولى الدين يكن والرافعى وعشرات آخرين . ووجدت فى هذه الرسائل آمالا ومعانى تتصل بالنفس الشاعرة . وكتبت « مى » الى هؤلاء ولكن الى أى حد مضت هذه الخطوط ؟

من أحبت « مى » صادقة من هؤلاء ؟ وكيف رسمت فى نفسها صورة المستقبل ؟ هذا هو الجانب الغامض فى حياة « مى » وهنا سر حياتها وموتها ومصدر أزمته التى أنهت حياتها بمأساة .

كانت « مى » روحا لطيفا ، وكانت تحب حبا وجدانيا خالصا ، ولكنها لم تلبث ان بدأت تصارع عوامل مختلفة متعددة فى حياتها فقد ارتفع بها السن وبدا أن الحياة لا بد أن تأخذ طابعا أكثر استقرارا . وفيما تمضى « مى » فى طريقها اذا بها تتلقى عدة صدمات فى وقت واحد فقد مات أبوها ، ثم ماتت أمها بعد فترة قصيرة ، فزلزلت الحياة أمامها زلزالها ، ثم لم يلبث ان نعى لها جبران وكانت تضم له ودا خالصا وتصطفيه .

استقبلت « مى » الحياة على غير الصورة التى تستقبلها بها الفتيات ، كان للصالون والشخصيات التى التقت بها اثرها فى نفسها ، وفى تكوين « عقدة » ما .

لقد كان شبلى شميل ويعقوب صروف وهما عالمان كبيران انصرفا الى العلم وحده ، كان كل منهما يضم لها عاطفة خفية . . . وهما فى هذا السن الكبيرة ، حتى أن شبلى شميل العالم الطبيعى الذى لم يعرف غير مقاييس الأجرام والجاذبية ، تتفجر نفسه بقول الشعر فى حب مى .

اما يعقوب صروف فقد كانت « مى » تبادله عاطفته وهى تكتب اليه « أكتب اليك والشمس تنزل درجات الافق ، وقد سبحت غيوم المساء كما فى بحيرات من المسجد والعنبر والزبرجد والياقوت فى جميع أطراف الافق تتوهج حرارة الربيع وتبدو بقطة الطبيعة وتلك الحرارة ، ما أجمل الشجيرات التى أنبتتها لنا كرما مصلحة التنظيم تبسم بأزهارها

الكليلة على جانبي شارعنا ، هل ذهبت اليوم لشم النسيم ؟ أم اكتفيت بالسير في شارع عماد الدين ؟

ربما كنت الآن سائرا في الخلاء تنظر الى هذا الغروب الساحر ، وتفكر بى أما أنا فلم أخرج من البيت في هذه الايام ، التى كثرت فيها المعاكسات .. لو كنت اليوم في لبنان لقضيت فريضة الحج الى حيث مشرق الشمس الفكرية منك وسيكون من مسراتى الكبرى هذا الصيف أن أزور البقعة الصغيرة الكبيرة التى بلا ريب سيقيمون فيها تمثالا يوم يجتاز الشرق حد التحمس الوقتى الى تأدية الواجب نحو كبار رجاله » .

وثمة عاطفة اخرى بينها وبين امين الريحانى ، الذى يصف ادبها بعد أن قرأ كتابها « الصحائف » و« أشعة وظلال » بقوله .. أدهشنى فيك وأنت في خدرك وفي قدس أقداسك شرقية لا تزالين - أدهشنى تلك الشخصية المزدوجة العجيبة التى لا تعرف سراها ما تصنع يمناها . فهى لا تسمح لعقلها في النقد بغير مقدار لحظة ولا لقلبها في مفاوز الشوق ومروج الحب بغير نظرة تذكرها بما في الحياة لفلسفتها وبما في الآداب لامرائها ، من ظلال ناعمة طيبة وادغال منعشة وأنت يا « مى » مدركة السر فى الاثنين ، ممتعة بالجمالين .

وهناك صورة أخرى من صور العاطفة الجياشة بين انطون الجميل ومى ولعلها واحدة من العوامل البعيدة الأثر فى أزمتها ومأساتها .

لقد التقى الجميل و«مى» على صداقة روحية امتدت من عام ١٩١٥ الى ١٩٢٨ حوالى ثلاثة وثلاثين عاما ، كان كل منهما فى الشباب الغض . وتطورت هذه الصداقة الى عاطفة وحب عذرى ، يقول لها فى بعض كتبه : يلذ لى يا « مى » أن أخاطبك باسمك مجردا من الوصف واللقب ، لأن كل وصف قليل اذا ما قيس لصفاتك ، وكل لقب ضئيل اذا ما اقترن باسمك .. بلغت الى البحر ما زودتنى له من سلام وتحيات .. الساعة الآن متأخرة من الليل ولا يسعنى الا الانتقال بالفكر الى تلك الشرفة الشاهقة . ذات الفضل العميم على فى مثل هذه الساعة ، فاقف طويلا عن الكتابة ضائعا فى بحار الذكريات بل ان الكلمات تعصانى فأبحث عنها فلا أجدها »

وهناك صورة أشد قوة ولوعة وحيوية هى صورة مصطفى صادق الرافعى :

لقد أحب «مى» من أعماقه ومن كل قلبه ، ثم حكم الزمن بالقطيعة ، هذه القطيعة التى لونت أدب الرافعى بعد ذلك ورسمت له طابعه واتجاهه ، فقد عاش الرافعى على هذا الحب ، وظل مشتتلا فى قلبه ، متوقفا بين جوانحه الى آخر أيام حياته ، وكان يطمع فى أن تصل الأيام بينه وبينها مرة أخرى ، ولكن هل كانت « مى » تبادل هذا الحب ؟

ان هذه الكلمات التى كتبتها « مى » للرافعى تعطى صورة واضحة لحب قوى « سآدعوك أبى وأمى متهية فيك سطوة الكبير وتأثير الأمر ، وسآدعوك قومي وعشيرتي أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دوما بالمحبين ، وسآدعوك أخى وصديقى ، أنا التى لا أخ لى ولا صديق . وسأطلعك على ضعفى واحتياجى الى المعونة ، أنا التى تتخيل فيك قوة الابطال ومناعة الصناديد .

سأستعيد ذكرك متكلماً فى خلوتى لأسمع منك حكاية غموك وأطماعك وآمالك ، حكاية البشر المتجمعة فى فرد واحد ، وسأسمع الى جميع الأصوات على أعثر فيها على لهجة صوتك ، وأشرح جميع الأفكار وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاضم تقديري لآرائك وأفكارك وسأبتسم فى المرأة ابتسامتى فى حضورى ، سأتحول عنك الى نفسى لأفكر فيك ، وفى غيابك سأتحول عن الآخرين اليك لأفكر فيك »

وكتب اليها الرافعى « ٠٠ أى بليغ يراك ولا يعرف منك فنا جديدا من حسن معانيه ومبانيه ، ويعرفك ولا يرى فيك ابداع البديع فيما يعاينه من افتنانه ، لله الحمد الذى جعلنا نتلقى الماء ولم يجشمننا أن نصعد من أجله السماء ٠٠ »

هذه صورة التقت فيها «مى» مع بعض من عرفت من الكتاب والأدباء على عاطفة غير واضحة أو ذات ظلال ، ولكن كيف كانت نهاية هذه الصور فى نفس « مى » ؟ لقد فكر الرافعى وفكر أنطون الجميل فى الزواج فماذا الذى صرفهما ، لقد مات جبران قبل أن يراها وقد واعدتها على لقاء لم يمهله الموت ليطمه ٠٠

الحق أن هذه اللوحات تعطى صورة النفس الحزينة المتمردة ، التى تدفعها عاطفة قوية فياضة ، ثم ترددها طبيعة جبلت على الحرص واقامة الحواجز والحق أيضا أن واحدا من هؤلاء الذين استغرقت عاطفتهم حب « مى » فيما يبدو لم يفاتها صراحة فى الزواج .

هذا فضلا على أنها ما أن فقدت أباه وأماها ، وبدأت خطوب الزمن تنتاشها حتى انصرف عنها هؤلاء الذين كانوا يحيطون بها أمسية الثلاثاء ،

لم تجد أحدا منهم يدفع عنها غائلة بعض الأهل الذين كان لهم فيها مطمع قريب أو بعيد . أنها كانت تنظر الى هذه الصداقات في حرص وحذر ، وكانت تريد أن تجد منها واحدة تدعو صاحبها أباه وأمه ، تطلعه على ضعفها واحتياجها الى المعونة ، وتجد فيه الرجل الذى تتمثل فيه قوة الإبطال ومصارعة الصناديد ، لم تجد ذلك الا فى الرافعى الذى غلب عليه كبرياؤه حين رآها تؤثر شاعرا معروفا بالحديث دونه فانفض انتفاضة المجروح ومضى . . وحاولت مى أن تعتذر له فلم يستمع ثم عاش حياته نادما . وقد سبقته الى الموت . .

أما مأساة مى فمجمل (١) الرأى فيها أن بعض أقاربها حاربوها بعد موت والديها ، وكان لهم فيها مطمع لم يجدوا دونه منالا ، فادعوا أنها قد أصيبت فى عقلها ونقلوها الى مستشفى العصفورية فى لبنان . . حيث أصيبت فى جو هذا المستشفى بمتاعب نفسية أضيفت الى حالتها الخاصة فى هذه الفترة حين خلت حياتها من عطف الوالدين وحدث هذا فى الوقت نفسه الذى أخذت تتخطى فيه الشباب الى بواكير الشيخوخة وليس من حولها واحة لها ظلال . .

يقول سلامه موسى أن مى تزعزعت عقب وفاة والديها ، وليس من السهل على فتاة أن تجد نفسها يوما ما وهى منفردة مقطوعة فى منزلها ، وخاصة فى وسط مهما قلنا انه متمدن فهو لايزال شرقيا .

ولما سافرت مى الى لبنان ، لم يذكرها أحد من أولئك الذين كانوا يتصلون بها وهم صفوة أصحاب الأقلام ، ان أحدا منهم لم يحاول أن يدافع عنها ، فلما عادت لم يزرها منهم الا القليل على قبيل المجاملة .

ويقول سلامه موسى انها عندما عادت من لبنان ، كانت سيدة بيضاء الشعر كأنها فى السبعين ، لقد قاست فى المستشفى كثيرا ، ثم عادت فلم تجد أحدا ينتظرها أو يترقبها ، كانت تضحك مرة وتبكي أخرى ، وكانت دموعها تنهمر بالبكاء ثم بعد لحظات تنشج بالضحك .
ثم ماتت مى . .

ولا شك أن «مى» قد سبقت الزمن حين ظهرت على هذه الصورة . . فقد كان أصدقاؤها يعجبون من صالونها ، وكانوا يحبون فيها صورة المرأة التى يقرءون عنها فى الأدب العربى ، فقد كانت المرأة المصرية اذ ذاك

(١) روت لى هذه القصة السبذة جميلة العلايلى تلميذة « مى » الاولى .

لاتزال محجوبة عن الحياة الاجتماعية ، ويبدو أنه لم يكن من الممكن أن يتزوجها أحدهم ، فقد كانت غلبة الطابع الشرقي التي لاتزال تملأ هذه النفوس تحول دون ذلك .

ولقد حاول الرافعي أن يتزوج « مي » ولكن شيئاً كان يقف في وجه هذه الفكرة هي أن « مي » على هذه الصورة التي ترضاها لحياتها لا يمكن أن تكون لرجل واحد ولا يمكن أن ترضى طبع الشرقي الحساس الذي يريد أن تكون المرأة له وحده

هذه قصة حياة « مي » أما أدبها فقد كان لونا جديدا ، ولاشك أن « مي » أنشأت مدرسة أدبية نسوية في الأدب العربي المعاصر ، تتلمذت عليها الكثيرات وفي مقدمتهن جميلة العلايلي . والكاتبة العراقية « مليحة » وهند سلامة وغيرهن كثيرات . .

وأبرز ما يتميز به أدب مي هو الحزن العميق الذي يبدو من وراء هذه الصور الشعرية المشرقة . . كانت تقول : « ان مبالغتي في التفاؤل هي في صميمها وأصلها مبالغة في التشاؤم » .

كانت حياتها تجمها وعبوسا . . كانت حادة صارمة فلم يكن أدبها الا وسيلة للتنفيس عن النفس المكتئبة على صورة تريح الاعصاب .

«العيون !» (١) تلك الاحداق القائمة في الوجود كتعاويد من حلك ولجين تلك المياه الجائلة بين الاشفار والاهداب كبجيرات تنطقن بالشواطىء وأشجار الحور .

تلك التي تذكرك بصفاء السماء ، والتي تريك مفاوز الصحراء ، والتي تعرج بخيالك في ملكوت أثري كله بهاء وتلك التي يتسع سوادها أمام من تحب ، وتنكمش لدى من تكره ، وتلك التي تثور بلحظة : أنت عبدى ، والتي تقول : بى حاجة الى الاستبداد فأين ضحيتى ؟ وتلك التي تبسم وتتوسل . وتلك التي تقول ألا تعرفنى ؟ العيون . جميع العيون . ألا تدهشك العيون

بدأت مي حياتها الأدبية بتحرير فصول في جريدة أبيها « المحروسة » تحت عنوان (يوميات فتاة) . . كان ذلك سنة ١٩١٥

(١) أشعة وظلال أصدرته «مي» سنة ١٩٢٣ .

ومن أجمل هذه الفصول مقال « غرفة في مكتبة » تحدثت فيه عن فترة قضتها بين صور مشاهير الكتاب في إحدى غرف الجامعة المصرية .

فى سنة ١٩١١ كانت تكتب بالفرنسية ، غير أن بعض المحيطين بها نصحوها (١) بدراسة اللغة العربية ومطالعة الكتابات العربية الفصحى ثم أخذت تقرأ ما يكتبه الكتاب حتى تكونت لها ملكة عربية شجعنها على الترجمة ، فترجمت ابتسامات ودموع ... وغيرها .

« وبعد ذلك (٢) ، بدأ يجتمع عندنا شبه « صالون أدبى » كل يوم ثلاثاء مكث أعواما تحت رئاسة المرحوم اسماعيل باشا صبرى فاقتبست منه تهذيبا عربيا بما كان يلقي فيه أثناء الحديث باللغة العربية الفصحى .

.. وقال لى الاستاذ لطفى السيد أثناء الحديث معى لأبد لك يا آنسة من تلاوة القرآن الكريم ، لكى تقتبسى من فصاحة أسلوبه وبلاغته ، فقلت له : ليس عندى نسخة من القرآن ، فقال ، أنا أهدي لك نسخة منه ، وبعث لى به مع كتب أخرى فابتدأت أفهم اتجاه الاسلوب العربى وما فى القرآن من روعة جذابة ساعدتنى على تنسيق كتابتى .

وفى خلال الحرب التحقت بالجامعة المصرية ودرست تاريخ الفلسفة وعلم الاخلاق على المستشرق دى جلارزا كما درست تاريخ الادب العربى والدول الاسلامية ثم أمدتها الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ باليقظة الادبية والخلق الجديد .

وكان أول كتبها فى اللغة العربية عن « باحثة البادية » صدر سنة ١٩٢٠ .

« وعلى ذلك أستطيع أن أقول ان أهم ما أثر فى مجرى حياتى الكتابية ثلاثة أشياء : أولها النظر الى جمال الطبيعة والثانى القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته الرائعة والثالث الحركة الوطنية التى لولاها مابلغت هذه السرعة فى التطور الفكرى » .

لقد تركت « مى » عددا من المؤلفات والكتب والأثار المنشورة فى

(١) أهم حادث أثر فى مجرى حياتى بقلم «مى» هلال فبراير سنة ١٩٣٠

(٢) المصدر نفسه .

عدد من الجرائد والمجلات ، وهى فى مجموعها تعطى صورة واضحة للأدب النسوى الجديد فى أولى صوره الكاملة .

وتعد « مى » بحق رائدة الأدب النسوى المعاصر ، وما أظن الا أن الكثيرات ممن جئن بعدها قد اتبعن طريقها فى تصوير النفس ورسم صورة العاطفة ، لقد كان أدب « مى » خالصا للفن لم تعتوره عيوب المناسبة السريعة أو النزعة الصحفية .



مصطفى عبد الرزاق

هل نستطيع أن نضع مصطفى عبد الرازق بين الكتاب والادباء..
رغم قلة الآثار التى أنتجها ؟ حقا لقد عنى بدراسة حياة محمد عبده
وجلاها وكان مرجعا هاما فى هذه الحياة .. وكتب الى جوار ذلك
أبحاثا فى الدين وبعض رجال الفقه .. ولكن ما علاقة ذلك بموضوع
البحث الذى نحن بصدده .. اننا ندرس هذه الطائفة « من الأدباء »
التي كانت الطليعة فى الأدب العربى الحديث .. فهل يكفى كتابه عن
الشاعر المصرى الرقيق « البهاء زهير » ليجعله من هذه الصفوة .

ولكن مهلا فقد كتب مصطفى عبد الرازق مذكرات وقصصا
وفصولا منشورة فى الكتب والصحف لا شك انها تضعه بين طائفة
الادباء المقلين الذين لم يتفرغوا للأدب كفن وحرصوا على أن يكونوا فى
صفوف العلماء الذين عملوا فى محيط الجامعة ... وكان لهم ليف
من الطلاب والمريدين الذين بهرهم حسن الخلق وصفاء النفس وسماحة
الطبع التى كانت من مميزات هذا الكاتب الانسان .

ولكن ماهو السر الذى دفع مصطفى عبد الرازق أن يقرء للبهاء
زهير بحثا خالصا ، اننى اربط هذا العمل الادبى الوحيد بحياته الخاصة
فالبهاء شاعر رقيق حبيب هادئ النظرات متد ، لا تطوف بحياته
زوابع ولا عواصف ، ولا هو من أولئك المندفعين الذين يفترعون
المغامرات او يدخلون حلبة الصراع .. وهذا الطابع هو صورة من حياة
مصطفى عبد الرازق الذى عاش حياته هادئا متدئا ، لا يصول ولا
يجول ، على عكس طه حسين وزكى مبارك وهم من ذوى العمائم ومن
الأزهريين .

كان لمصطفى عبد الرازق طابعه الحيبى ، وكان مثالا للاناقة والركة
والهدوء ، كأنما الحياة عنده اغنية جميلة أو موسيقى هادئة ، ولقد
عرف عن مصطفى عبد الرازق حب الجزالة والاعادة والمراجعة والتفكير
والتبديل فى الاثر الفنى الذى يكتبه قبل أن يظهر عليه الناس ، وهوفى
هذا يقول وكأنما يصف نفسه : « ان الجزالة هى التطبع فى شعر البهاء ،
وان الرقة هى الطبع » .

ومصطفى عبد الرازق بعد ذلك موضع اعجاب كل من عرفه او لقيه او تتلمذ عليه .. وما رايت انسانا التقى به او عرفه الا وهو محب له ، كلف بهذا الحب ، ولكن ماذا تعطي هذه الكتابات الهادئة الأنيقة التي نقرأها لمصطفى عبد الرازق ، هل يمكن القول بان وراء شخصيته انسانا آخر قد كان وحيه والهامة مصدرا لهذا الطابع المصقول ؟

لقد بدأ هذا الكاتب حياته في الازهر ، هناك بين الكتب الصفراء التي تضيق بها النفس والتي تذهب البصر والتي تمنح كل شيء ألا هذه الرقة وهذا السمت الهادئ الأنيق المشرق الذي يخيل اليانانه لا يعرف الحزن ولا الألم .

ونشأ مصطفى عبد الرازق في الريف من الصعيد حيث الحياة لا تمنح هذا اللون من الأناقة البالغة ، وكل هذا من شأنه أن يصيب الأسلوب بالبلاغة ويصيب الشخصية بالجفاف .

ولعل مصطفى عبدالرازق يصور هذا المعنى حين يقول في مذكراته عن حياة الازهر « ١ » (اصبحت لا اجد لما احضره من دروس الازهر طعما ولا اشعر بفائدة في تكوين ملكة او تهذيب هذه الابحاث المجذبة التي افنى فيها حياتي جاهدا ، ثم ان في اعماقي قلقا ينزع بي الى امانى لاموضع لتحقيقها في هذا الوسط .. ويارحمته للمجاورين لا يفتأون يقبلون تلك الايدي التي لاهى ايدي النساء الناعمة فتجيء فيها نعمة الله على الناس بالجمال والحب . ولا هي مرتجاة لخير فتكرم لخيرها ومعروفها « ٢ »)

ولكن مصطفى عبد الرازق كان نسيجا وحده ، شخصيته صيغت وفق هذا الطابع من الرفق والهدوء والاناقة .

والا فهل قرأت مثل هذا لأديب نشأ في الريف وتعلم في الازهر ؟

« المرأة هي المنبع الفياض لما في الحياة الانسانية من حب هو

(١) مذكرات مصطفى عبد الرازق آية من الآيات ولطالما طالب أصدقاء الكاتب بنشرها وحدثنى الأستاذ عبدالكريم الخطيب وهو من أهل العلم والفضل أنه راجع هذه المذكرات فعلا وأعدّها للنشر ولا يؤخرها عن الظهور الا مقدمة يكتبها السيد على عبدالرازق شقيق الكاتب ، وأنا لنهيب به ان يفعل ويسرع ..

(٢) مذكرات مصطفى عبد الرازق - ٣ مايو ١٩٠٥ .

أساس النظام والعدل والرحمة والسعادة ، على أن في فطرة المرأة نوعا من السحر والخلابة والجمال هو الذى يسمو بخيال أهل الفن الى ما يبدعونه في آثارهم الفنية ويلهم الشعراء روائع الشعر ويذكى في قلوب المستنيرين نار العشق العظيم وإذا كان جمال الحياة فنا وشعرا وحبا فان المرأة هى التى تبنى كل مائى الحياة من معانى الجمال » .

فهذه الطبيعة الانسانية المشرقة هى طبيعة الاديب الذى يأخذ من كل شىء ولا يطفى عليه شىء من مذاهب القول أو الفكر ، هذا الاسلوب الرشيق الذى يكتبه مصطفى عبد الرازق هو صورة نفسه المشرقة ، هذه النفس التى ظل صاحبها بعد أن عاد من باريس يلبس العمامة ويحتفظ بها الى آخر العمر .. ولا يمنعه ذلك من أن يرسم لبركة لكسمبورج هذه اللوحة الرائعة ..

« ... ثم يخرج الى ساحة تبسم الانوار فيها والزهر ، وينحدر على درج الى البركة ذات النافورة .. مرتع الاطفال اللاعبين يماركهم الصغيرة فى أمواجها ، ومن حولها دك متفرقة لمن ليسوا أطفالا .. ولمحت فى بعض النواحي سيدة بيدها خطاب تقرأه فيشرق وجهها بالسرور وتبتسم . وتلقاها فتاة تكتب فى صحيفة وتتلو ماتكتبه فتجدر عبراتها وكم يأوى الى هذه البركة من باك ومبتسم ، ليس ماء ذلك الذى يجرى فى بركة لكسمبورج ولكن ذوب ابتسامات ودموع . ورويدكم ايها الاطفال العابثون بالماء » .

لقد دخل الشيخ مصطفى عبدالرازق باريس بين صديقين كريمين « كان أحدهما يلبس قبعة والثانى يلبس طربوشا وكان الثالث شيخا معصما » وعاد من فرنسا عام ١٩١٤ .

وكان قد التقى فجر حياته بالشيخ محمد عبده الذى كان بعيد الاثر فى تحويل مجرى هذه الحياة ، لقد كان ضيق النفس بالازهر فلما كتب الى الشيخ زاره فى دارهم ونصح له بأن يستمر على أن يتولى هدايته الى مطالعات فى غير أوقات الدراسة .. يقول :

« اتصلت بالشيخ محمد عبده فتأثرت بدروسه وآرائه واضطربت فى نفسى تلك اليقظة الفكرية التى بثها الشيخ محمد عبده فى عقول تلاميذه بما كنا نتلقى عن شيوخ لم نرضنا معارفهم ولا مذاهبهم » .

والحق أن مصطفى عبد الرازق اخذ من الريف ذلك الوفاء النبيل

وتلك الطبيعة الثابتة التى لا يتحول منها شيء سواء كان صاحبها فى القاهرة أو فى باريس ، فى الوزارة أو فى الأزهر أو فى الجامعة .

أخذ من الأزهر اللغة والبيان والرصانة وأخذ من السربون التحقيق العلمى ومزج الشرق بالغرب وظل مع ذلك محتفظا بطابعه ، وفى يوميات إبراهيم الفزارى التى كان يكتبها عن نفسه ويختفى وراءها قوله « فى الجريدة » :

« .. ان حياتى ليست منطقية ، ان الحياة المنطقية هى مطابقة الحياة للمزاج والسير فى الشئون الخارجية على وفق طبيعة النفس الداخلية ، أما جو قلقى لنفسى هادئة ، ومعمعة حرون لطبيعة مسالمة ، فليس من المنطق فى قليل ولا كثير . »

كان منذ شبابه الباكر يتطلع الى المجد ويرنو الى آفاق بعيدة لم تكن واضحة وضوحا صريحا فى نفسه ، ولكنها كانت تملأ قلبه وعواطفه، وتصورها هذه العبارات التى كتبها فى مذكرات الشيخ الفزارى سنة ١٩٠٥ :

« أنا أستيقظ من منامى قبل أن تشرق الشمس فما أزال أنتقل من حلقة أستاذ الى مشاركة رفيق فى مطالعة الى انفراد بالدرس حتى أوى الى مخدعى قبل نصف الليل فاتر القوة متنبه عصب الدماغ محتاجا الى النوم غير واجد اليه سبيلا وليس لى من سلوة فى ثنايا هذا العناء المتتابع لا من لذة العمل نفسه ولا من ثمرته .. ثم ان فى أعماقى قلقا ينزع بى الى أمانى لاموضع لتحقيقها فى هذا الوسط . »

فى هذه السن كانت تغلب عليه طبيعة الحياء التى تعوقه عن ان يثبت ما فى نفسه للناس فكان يكتبه فى الورق . يقول :

« كنت يومئذ شابا تتفتق عنه غلاثل الطفولة ، ولم تكن بنيتى قوية ، ولا اعصابى متينة فضعفت من اثر الجهد المضنى فى دراسة غير منظمة وعرانى سأم من الدراسة فى الأزهر واشتد ذلك السأم حتى صار ألما ملازما ، وكانت طبيعة الحياة تعوقنى فى ذلك الوقت عن أن ابث ما بى الى أحد . »

ولكن : هل أذهبت أوروبا والعلم وارتفاع السن هذا الحياء ؟ .. كلا فقد بقى مصطفى عبد الرازق رمزا لهذه المعانى العالية النبيلة من الخلق .

يقول الاستاذ محمود الشرقاوى (١) : « ان مصطفى عبد الرازق

(١) الرسالة فى ١٨ فبراير ١٩٥٢ .

عرف برقة العاطفة والحياء والتواضع وحب الخير والاعتداد بالنفس ،
وان هذه الفضائل كانت سببا في متاعب عاتية وقع فيها وهو شيخ
للأزهر ، وتفسرى بكلمة متاعب فيه كثير من التساهل ، وعندما يكتب
تاريخ هذه الفترة سيعرف الناس اى ظلم وأى مضر لقيه الشيخ في
مشيخة الأزهر لبعد او تناقض ما بين طبيعته وبيئته اذ ذاك » .

وفي ميدان السياسة كان لا يعرف النفاق ولا الحيلة ، كانت
طبيعة العالم المترفع طابعه .. وكان في نظر تلاميذه احد الاساتذة
القلائل الذين حفظوا معالم الحق والخير والجمال كحقائق يمكن التماسها
في صورة انسان .

وكان في دراساته الفلسفية يحدث طلبته عن هذه المعاني ، يقول
الدكتور عثمان أمين : كثيرا ما كان يحدثنا الاستاذ فيقول ان هناك
فلسفة جميلة بزغت منذ فجر الفكر الانساني وثبتت على احداث
التاريخ وهى فلسفة كرام النفوس ، أولئك الذين عاشوا للعالم كله
لا لأنفسهم ، وظلوا على وفاق مع قانون المجد والسخاء ، وكان أول
من رسمها انبياء الشرق ثم اذاع تعاليمها كبار المفكرين والحكماء من
سقراط الى أفلاطون وأرسطو والفارابى وديكارت وإغاندى . جميعهم
قد استطاعوا ان يستشفوا جوهر الدين .

هذه الفلسفة تلخص في حالة نفسية يصح ان يطلق عليها الاسم
الجميل الذى اختاره ديكارت : اسم «الاريجية» .
وتلك حال النفوس التى تعطى ولا تأخذ وتسعى الى اسعاد الغير
مهما كابدت من عناء .

وصدق طه حسين حين قال ان مصطفى عبد الرازق كان كنزا
من كنوز مصر ليس الى استقصائه من سبيل ، كان كنزا فى العلم وكنزا
فى الخلق والسيرة والقدوة الحسنة لطلابه واصدقائه والذين عرفوه من
قريب او بعيد .

وبعد ... فهل يمكن للآثار التى خلفها مصطفى عبد الرازق أن
تعطينا سرائر حياته ومنها هذه المذكرات التى نشرت فى الصحف على أنها
« مذكرات قديمة » ؟

هذه «عذراء الريف» تاريخها ١١ أغسطس سنة ١٩٠٦ نشرت سنة
١٩٣٦ .

» خرجت أصيل الامس الى الخلوات أطوف فى انحاء المزارع حتى

انتهيت الى فجوة في زراعة قصب تشقها قناة معشبة الجوانب يجرى فيها ماء غير آسن ، فألقيت عباءتي فوق تلك الحشائش العذبة ، واستلقيت اليها ، وكان معي الجزء الاول من العقد الفريد لابن عبدبريه وبهامشه زهر الآداب للحصري ، وجعلت اداول الكتابين في القراءة . واقيد في أوراق معي ما يسترعى منى عناية خاصة ، وبينما انا مشغول بمحاولة الاجادة فيما اشدو به متأثر النفس بمعاني الاغانى نفسها، اذ اقبلت فتيات يردن الماء فوضعن الجرار عن رءوسهن ثم جلسن الى جانبه يسمعن غنائى ، وكنت اراهن وأتكلف الجهل بمكانهن حتى لا ينفرن . ولما رايت انسهن بصوتى غنيت من شعر ابى تمام .

.. ولم يكن يبدو على جارأتى مظهر الفهم ، ولكنى كنت ألمح فى أسارير صفراهن علامات التأثير كلما جعلت نغماتى أشبه بأنين غرامى والتقت عيني بعينها عند منصرفى » .

وفى اليوم التالى كتب فى مذكراته بقية القصة :
« ... رجعت اليوم الى مكاني بالامس فعادت وحدها ، الانسة الفتية شابة فى السابعة عشرة ذات قامة وافرة من غير أن تكون طولا ، نحيفة من غير أن يذهب النحول بحسن التناسب بين ما يعلو ممتلئة وما يهبط اهيف ، من جسم كأنما صب فى قالب ، فليست ترى فى خطوطه عوجا ، شيقة لطيفة ذات وجه يملك القلب بما فيه من طبعة حسن ممتازة عن كل ما عرفت من اشكال الجمال النسائى فى ثفرها وعيونها آيات الذكاء الفطرى والسذاجة الحلوة والعصبية والاحساس الدقيق . دنوت الى الفتاة يدفعنى شعور بأن الى جانبها حظا من سعادتى، ويركبنى الحياء ، ثم حييتها فردت من غير نفور . قلت : وحيدة أنت اليوم : فأجابت اننى أحب الوحدة فى كثير من الوقت .

قلت ان الميل الى العزلة نزعة النفوس الحزينة وأنت مخلوق أوجده الله ليعطى السلوان للأنفس المعذبة .. وليكون فى ظلام الحياة نورا .. قالت اذا كانت الوحدة آية للألم النفسى فما بالك تحبها وأنت منعم ؟ قلت ان من وراء هذا كله مواضع للألم فى قلب غير جامد ، ولبشنا ساعة سكوتا تبادل نظرات ناطقة سمعنا ساعتئذ حفيف أوراق القصب تنحسر عن قادم فانتبهنا من تلك السكرة الحلوة لحب نشرب اليوم كأسه الاولى .. » . هذا هو مصطفى عبد الرازق فى مذكراته . قلب كبير محب .. هذه العاطفة الحلوة الصادقة كانت الضياء لحياء الرجل ومادة لأدبه ، كان وهجها النفاذ الكامن فى أعماق القلب يمنح أسلوبه تلك الرقة وبيانه ذلك الجمال ، ويعطى روحه هذه السكينة والطمأنينة .



محمد السباغ

صورة محمد السباعى فى نفسى قريبة الشبه من جانب بالمازنى ومن جانب آخر بزكى مبارك ، فيه هذه اللوحة التى حملها التاريخ القريب للأدباء الذين كافحوا فى سبيل الفن وعاشوا فى مسغبة وقلة ولم يخلقوا من ورائهم شيئا ، كان مدرسا موفور الرزق تفتتح أمامه ابواب المجد فى محيط التدريس والعلم ولكنه أثر الادب وتجرد له ، وحرر نفسه من قيود الوظيفة فأجهد ذلك غاية الاجهاد ، فلم يكن الادب وحده صالحا لان يكون موردا ولا يزال .

والادب الرفيع صناعة شاقة ، ومجهود موصول ، من غير جزاء ولا ثمن ، ومتى كان ذلك ؟ كان فى عهد النحت والبناء ووضع القواعد، وكانت صناعة الترجمة من الآداب الأوربية عنصرا ضخما من عناصر النهضة الادبية التى طلعت فى أوائل هذا القرن ، وكان السباعى دعامة فى هذا المحيط . وكان متحررا فى فن الترجمة من قيود الحرفية ، وكان كلفا بكاتب واحد هو «مونسان» .

.. ما فتحت البلاغ الاسبوعى مرة فى سنوات ما بعد ١٩٢٦ الا رايت آثاره وقصصه المترجمة ، ثم عاصرت ذلك السجال الذى وقع بينه وبين زكى مبارك سنة ١٩٣١ . لقد احس فى آخر ايامه غدر الزمان ووجد ذلك الجهاد الطويل الذى عاش له ، مضيعا عند الناس ، وكان يتوق فى تلك السن الى أن يحس بكلمة التقدير والاعجاب ، يده فراغ، وقلبه مشوق الى الحسن والعاطفة ولكنه لا يجد الا ازوارا ٠٠ فصرخ صرخته التى أدمت القلوب .

« ... وأصبحت حرفة القلم عندى بعد ما كان لها فى سالف الزمن من اللذة والسرور كاسفة حزينة، جافة جدبة ، ناضبة مقفرة من الطرب والأنس ، بل من العزاء والسلوى ، وأصبح القلم فى يدي أشد بؤسا ومسكنة من الزمار فى يد الشحاذ المتسول ، ترى نفه أقرب الى أنة التكللى منه الى رنة السرور » .

تلك هى أزمة السباعى النفسية التى كونت فلسفته فى التبرم بالحياة والسخرية منها وقد نصح للشبان أن ينصرفوا عن الأدب. « واذا

أمكن ان يكون هناك دواء يفيض اليهم الأدب وصناعته فليسألوا عن مكانه
ويشتروه بأعلى ثمن .

وليس هناك شك ان من ينصح بهذا لا بد أن يكون قد ذاق من
الادب الويلات ، لقد كان السباعي يعتقد في مبدأ حياته أنه يستطيع
الاعتماد على الادب ولكنه أخفق : « انقطعت للادب سنين عدة وأمكنني
ان أعيش عيشة ليست أسوأ كثيرا من عيشتي الحالية ، وكنت اعتقد
باديء الامر أنه سيجيء يوم أريح فيه من الأدب ما لا يقل عن راتب أكبر
موظف في الحكومة ولكن هذا الحلم كان سرايا خادعا » .

واشترك السباعي في تحرير الجريدة ومجلة البيان وجريدة البلاغ،
وكانت الترجمة عصب ادبه ، ترجم رباعيات الخيام نظما ، وكتاب
الابطال لكارليل ، وقصة المدينتين لديكنز ، والتربية لسبنسر ، وهو في
هذا يتفق مع المازني ويختلف معه . فقد أبدع المازني ادبا غير الترجمة،
وكان المازني يحب الترجمة الدقيقة ، ولكن السباعي كان يبيع لنفسه
الترجمة بالمعنى ويعمد الى توشية مايكتبه بمحفوظه من النثر والنظم .

ولقد وصف زكي مبارك أزمة السباعي فقال : « كان السباعي من أهل
التضحية في سبيل الادب ، ضحى بمستقبله وطماننته في بلد لا ضمان
فيه لحملة الاقلام ، لقد ابتدا عمله بالتدريس ، ثم رأى مهنته لا تصلح
لغير المتزمتين المتوقرين الذين يرون الدنيا بعيون النائمين ، فأثر حياة
الكتابة على حياة التدريس ، ولكن في أى عهد كانت هذه المخاطرة ؟ كانت
في عهد مظلم يحيا فيه الصحفيون والمؤلفون والمترجمون تحت رحمة
العوام وحلفائهم من أشباه الخواص .

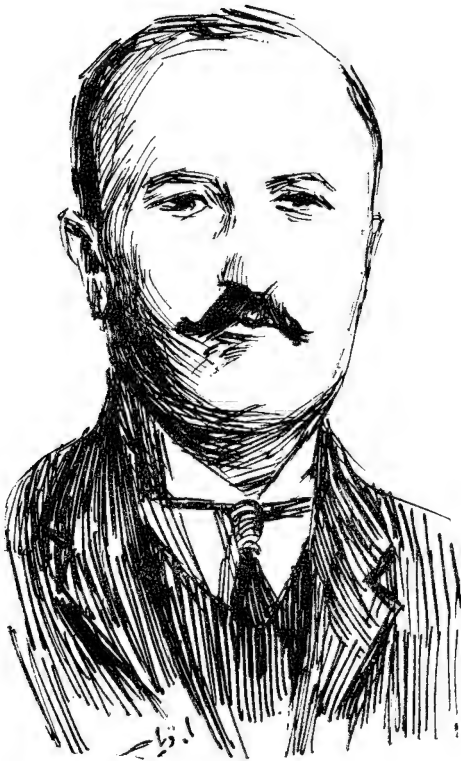
فاذا ذكرتكم ايها الناس ان السباعي قضى اكثر من عشرين عاما وهو
موصول الجد والكفاح في امداد الصحف بأروع آيات الترجمة والانشاء
فاذكروا بجانب ذلك انه كان يحيا حياة العامل المسخر أو الاجير المغبون .

لقد كان السباعي من أهل المرح . فكان بذلك أعرف الأدباء بنعماء
الحياة ولكنه في أخريات أيامه استسلم الى الحزن والابتئاس واطمان الى
جدلة حلم يذهب ودنيا تزول (١) » .

وقد اضاف زكي مبارك الى كتاب مصر في ١٩١٠ وهم محمد المويلحي
وعبد العزيز جاويز وعلى يوسف ومصطفى المنفلوطي ووصفه بالبصر
باللغة العربية وبالذكاء الحاد .

ويعتد السباعي من أوائل من ترجموا من الأدب الروسى ، وحمل
لواء الترجمة فى هذا العصر الذى كان الأدب العربى فيه يتشاءم ليخرج
من قوقعة الجمود والتقليد ، وكان فى أشد الحاجة الى أولئك الرواد
الذين ينقلون روائع الادب الأوروبى والآثار والأفكار الغربية ، ويندين لهذه
الطائفة بالفضل شباب الطليعة الذين جاءوا على اثرهم .

وبعد فليس فى حياة «السباعي» ذلك الصراع او تلك الأحداث
الضخمة الفاصلة التى نعرفها فى حياة بعض كتابنا ومفكرينا ، وهى تتسم
بذلك الطابع المتئد الهادئ ، وتتلخص فى أنه قد انفصل فى شبابه عن
حياة التدريس واختار الصحافة والأدب ، ورأى انه بذلك قد حقق أملا
كبيرا ولكنه ندم فيما بعد على هذه الخطوط الجريئة وظل نادما عليها
طوال حياته فان الأدب لم يعرضه ما فقدته ولم يحقق له ما كان يحلم به
... وفيما عدا ذلك فحياة « السباعي » هادئة ليس فيها صراع
ولا أحداث ولا مفاجآت ، لم يكن من الذين يفترعون المساجلات فى الادب
ولا المغامرات فى الحياة ، وانما كان يكتفى بهذا اللون الذى عرف به ، وهو
الترجمة ونقل الآثار الاوربية الى اللغة العربية .



جی جی زیان

ظاهرتان في حياة جرجي زيدان توحيان بالعظمة وتلفتان النظر الى هذه الشخصية الضخمة التي تركت آثارا قوية متعددة في الاجتماع وفي الأخلاق والأدب والحكمة والسياسة والتاريخ ، انه هاجر في مطلع شبابه الى مصر والهجرة تعطي معنى القوة والثقة بالنفس ، والرغبة في العلاء والهروب من الواقع المر الى الآفاق الواسعة ، والثانية انه ثقف نفسه بنفسه ، وعكف على الدراسات المتعددة حتى كسب قدرا من العلم اهله ليكون قائدا من قادة الفكر في مطلع القرن العشرين .

تعطينا هاتان الظاهرتان صورة الطموح والتطلع الى المجد في نفس الشاب الذي عاش يكتب للناس ويدرس اسرار الوجود والازلية . هذا البحث الذي شغل أوقات فراغه والذي قرأ له عشرات من المؤلفات وكان يقول : « لقد اكتفينا في هذه الحياة بفخرنا وقصورنا عن ادراك أسرار الكون فلتعجل بنا الحياة الاخرى لعلنا ندرك من تلك الاسرار ما يشفي الغليل » .

ولم يقف امر طموح جرجي زيدان عند هذا الحد بل اولع بالاسفار فقد ذهب الى السودان وسافر الى الآستانة وأوروبا وفلسطين ولا شك أن رحلاته قد أمدته بمزيد من الخبرة والتجربة ، وتنقل بين دراسة الطب والصيدلة واللغات فدرس العبرية والسريانية والانجليزية .

ولا شك أن طبيعة جرجي زيدان العلمية ودراساته في مطلع الشباب واتجاهه الى العلوم والطب واللغات ، هي التي كونت اسلوبه الكتابي ورسمت أسس كتاباته التاريخية . وأسلوبه صورة نفسه ، الاسلوب التلغرافي البسيط الواضح الذي يحرص على المعنى أكثر مما يحرص على اللفظ ، فهو لا شك كان منبسط النفس غير معقد الاحاسيس ، وكان غير حفي بالاناقة والطعام ، وأسلوبه الادبي يعطينا صورة الاعتداد في الطبع ، ولكن هذا لا يمنع انه ذو عزيمة ماضية وقلب وثاب ، فهو قد هاجر من الشام عندما ضيق على المفكرين ومنعت الخطابة وحرمت الكتابة ، عندئذ قصد الى مصر مع من قصدوا اليها ليجدوا مجالا لاعلان آرائهم .

وكانت حياة زيدان رمزا على الجهاد الصامت والكفاح الدائب في سبيل الفكرة « ابتداء (١) زيدان يحرر الهلال منذ عشرين سنة ونيف. فكان في اول سنة من سنى الهلال يقف الى مكتبه وقوفا يحرر فصلا أدبيا أو اجتماعيا ويترجم رجلا مشهورا ويؤلف رواية تاريخية ، ثم يراقب الطبع والتصحيح دائبا على العمل نهارا وليلا ، ثم توفي وكان قبل الوفاة ببعض دقائق واقفا وقفته لم يقلل ساعات العمل ولم يتسجر أو يتأفف يوما من كثرته » .

وصورة أخرى من طبيعته العلمية الراسخة ، انه كان يواجه النقد والحملات بأسلوب الرياضى فلا يضيق بها ويمر بها كريما ، وهذه الآفة دلالة على هدوء الاعصاب وضبط النفس والايمان بالهدف .

ويعد جرجى زيدان من رجال الفكر ، وأسلوبه اسلوب العلماء الذين يؤمنون بأن الالفاظ ادوات للمعاني ، ولعل دراسته للطب في مطلع حياته هى التى منحتة هذه الطبيعة العلمية ، ويقف جرجى زيدان على احدى القاعدتين اللتين اشرق عليهما فجر النهضة الفكرية في الشرق ، قاعدة لطفى السيد الذى رسم صورة المصرية وفتح باب النقد الادبى ، وقاعدة جرجى زيدان الذى أدخل الى الفكر العربى المعاصر الطريقة العلمية للبحث ، ووضع الخطوط الاولى للأبحاث التى جاءت بعده فى تاريخ الاسلام والادب العربى « (٢) .

وقد تأثر بطريقته وأسلوبه سلامة موسى واحمد أمين وعباس العقاد . ومضى جرجى زيدان يحرر الهلال منذ سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩١٤ أى أنه أمضى اثنين وعشرين عاما وهو مكب على القلم يكتب ويقرأ ويدرس ويتناول فصول التاريخ القديم وأحداث الحاضر حتى اتيح له ان يخرج هذا القدر الضخم من المؤلفات والروايات .

وكان هذا فى الحق جهدا غير طبيعى ، لا يمكن ان يصدر عن انسان عادى مما أدى الى أن يتحطم الرجل مرة واحدة .

ومهما يكن رأى النقاد فى بعض الوقائع التاريخية التى أوردها جرجى زيدان فانه قدم الى الناس صورا للتاريخ الاسلامى فى أسلوب قصصى محبب الى النفوس قريب الى المتوسطين الذين لا يستطيعون هضم المجلدات التاريخية الجافة .

(١) « سامى الجريدينى » .

(٢) ولانسى هنا أثر شبلى شميل وفرح انطون ويعقوب صروف .

ويقول الدكتور طه حسين ان جرجى زيدان هو « الذى نقل الى الادب العربى مذهباً من مذاهب الادب الأوروبى ٠٠٠ هو القصص التاريخى »

وبعد فان الدراسات التى كتبها طه حسين والعقاد وهيكلا ووجدى والجميل ومطران والبشرى والمنفلوطى وجبران على فترات متباعدة أو متقاربة من ذكره ، تعطينا فكرة واضحة بأن هؤلاء الكتاب تتلمذوا أو اتصلوا من قريب بآثار هذا الكاتب ، فضلاً على أن هذه الآثار كانت موجهة لفنهم واسلوبهم .

وان منهم من كان يقصد جرجى زيدان ليسأله رأيه فى أمر من أمور الفكر والادب ، يقول الاستاذ العقاد : « . . ومرة أخرى زرته فى بيته بين الفجالة والظاهر ، وأنا مشغول بقراءة شوبنهاور لأسأله رأيه فى أصبح النظريتين الى حقائق الحياة : نظرة المتشائمين أو نظرة المتفائلين » .

ويصف طه حسين صاحب الهلال بأنه « من رجال هذا الجيل الساخط الطامح وكان الهلال نتيجة من نتائج سخطه وطموحه ، وجرجى زيدان لم يكن أرسقراطى الادب وانما كان رجلاً يجمع بين ترعتين مختلفتين اشد الاختلاف ، ولكنهما نافعتان اشد النفع احدهما النزعة العلمية التى تظهر فيما كتب من التاريخ الادبى والسياسى ومن تاريخ الحضارة ، والثانية النزعة الشعبية التى تظهر فى هذه الكتب التاريخية نفسها ، وتظهر بنوع خاص فى قصصه وفصوله الثقافية العامة » .

ويقول العقاد ان جرجى زيدان من كتاب « ما يسميه هو بالحاسة الاجتماعية ونسميه نحن بكتاب الاستواء والطبع السليم » ، تقرأ جرجى زيدان فى جميع موضوعاته فاذا هو مطبوع بطابع السداد والاستقامة والاستواء ، هى جدول وليست بشلال وهى بنت الدوام وليست بنت الفلتات واللمحات » .

وبعد فان آثار جرجى زيدان تعطينا صورة لرجل مفكر فيه نزعة علمية ، ونظرة واحدة الى انتاجه تبين لنا جوانبه العقلية جميعها ولكنها لا تضع امامنا شيئاً عن عاطفته .

ولكن عاطفته تبدو قوية حين نتصور هذا الانتاج الضخم الذى أصدره فى السنوات القليلة التى عاشها منذ أنشأ الهلال عام ١٨٨٩ الى أن توفى عام ١٩١٤ .

ان هذا الانتاج يدلنا على أن جرجى زيدان لم تكن له صبوات ، ولم يكن ينفق وقته عبثاً ، لقد عاش يقرأ هذه المراجع الضخمة التى

استقى منها مصادر كتبه فى التاريخ وفصوله عن الابطال والعظماء وجعل منها مادة قصصه ، لقد عاش يقرأ ويراجع ويستقصى ويكتب ويراجع ويصحح ويقدم آثاره للادباء فى الشرق العربى كله .

انك من خلال انتاجه ، تراه جادا متجهما ليس فيه عاطفة ولا نزوة ولا لمحة من لمحات الاشواق الانسانية ، كأنما وجهه عواطفه كلها الى المطالعات والدراسات ، وقد كان جرجى زيدان الى ذلك سوى الطبع والفطرة فقد تزوج وأنجب وكان يحمل عاطفة الحب لاولاده ويرسل لهم الخطابات فى أثناء سفرهم يوجههم ويدفعهم الى الحياة الكريمة .

ومن هذه الخطابات تنكشف سرائر هذا الرجل الجاد المكافح فى اصرار عجيب وهو يرى أن الانسان الممتاز هو الذى يعتاد الشيء سريعا فان قوة ارادته تجعله يطبق نفسه على الوسط الذى يوجد فيه ، وأن ذلك دليل القوة والحيوية فى الانسان .

وليس فى حياته حوادث ضخمة سوى هجرته من الشام الى مصر ، وكان هدفه استكمال دراسته للطب فى مصر بعد أن ضعف امله فى الحصول على اجازته من بيروت ، وتظهر عصامية جرجى زيدان حين يقول فى مذكراته انه حين أزمع السفر الى مصر لم يكن يملك نفقات السفر ولكنه لم يوفق فى مصر الى دخول مدرسة الطب واتجه الى الصحافة والادب .

وتبدو مظاهر العصامية فى كل مراحل حياته فهو قد كافح حتى تعلم الانجليزية وكافح فى سبيل دراسة الطب وتعلم اللغتين العبرية والسريانية .

ولعل طموحه هذا وتطلعه الى المجد هو الذى حجب عن ادبه مظاهر العاطفة فقد غلبت عليه النزعة العلمية فى آثاره وبحوثه ، ولقد ظل جرجى زيدان يكافح ويدرس ويكتب حتى قضى وهو على مكتبه مخلفا هذا الانتاج الضخم .

يقول خليل مطران انه ما عرف رجلا أجمع للنقيضين - الكبير والتواضع - منه « لم أشهد ولم أسمع عنه انه شكك دنياه بمحضر من أحد ، ولا انه تمنى على أحد شيئا بإشارة أو مصارحة كما أننى لم أجده مرة مستقرا للأخذ بثأره من متهم عليه فى الصناعة التى هى مدار رزقه ومحور شهرته لاعتقاده شرف غايته » ويقول فى خطاب لابنه : « فى سنك كنت جباناً ولكنى لم أكن أجده من يشجعنى ولا من يشير على أو ينبهنى الى نقص ولو وجد من ينبهنى الى نقائصى لوفرت على نفسى

تعب سنين وتعبت النجاح اعواما ، فاستفدت انت من هذه الفرصة ،
ان العمل في الدنيا يحتاج الى جراءة واقدام كما يحتاج الى الثبات
والصبر » .

ولكن اذا نحن اردنا ان نحدد مكان جرجى زيدان فأين نضعه بين
الكتاب والمؤرخين والصحفيين ؟

لقد كتب بضعا وعشرين رواية قصصية جعل مادتها التاريخية من
تاريخ الاسلام ، والف عدة كتب عن التمدن الاسلامي وتاريخ مصر ،
وتاريخ مشاهير الشرق ، ولقد تناول النقاد هذه المؤلفات بالدرس ، وهو جرجى
زيدان ، وقال البعض انه اعتمد على بعض الروايات الضعيفة
أو المؤرخين الاسرائيليين ، أو رضا بعض المصادر ذات الهوى .

ونسى النقاد ان جرجى زيدان كان يقتحم ميدانا جديدا وان ادواته
بالطبع كانت أقل من ادواتنا الآن ، وانه في حدود المراجع التي وجدها
بين يديه استطاع ان يدرس تاريخ العرب والشرق باعتباره تاريخ
الاسلام .

وليس من شك ان جرجى زيدان كان يتناول ذلك بحسن نية على
اساس انه كاتب عربى يكتب للعرب ، فلا عليه ان اعتمد على رواية دون
رواية ، ولا شك انه فيما تناول من حياة المعاصرين كان دقيقا ، لان
ادوات التاريخ كانت تعيش بين يديه وهو لاشك أول من ابتدع من
التاريخ الاسلامي صورة قصصية لطيفة محبة الى النفوس كانت سبيلا
الى عقلية العامة لتقبل حقائق التاريخ الجافة .

ولقد كانت آراء جرجى زيدان وافكاره ومذاهبه غاية في الاعتدال
ولا عيب ان لم تكن معالم اسلوبه واضحة وضوح اسلوب الادباء فهو
عالم وباحث ومفكر ، وقد عاش قبل نهضة الاسلوب البياني وآمن
بالاسلوب التلغرافي القصير الواضح الذى يصل الى ما يريد ان يقول دون
لف أو دوران .

وغاية القول ان جرجى زيدان قد انشأ مدرسة واضحة الاثر في
الادب العربى الحديث هي مدرسة الهلال التى ابرزت بصورة واضحة
فيما بعد احمد أمين وسلامه موسى والعقاد ، ولا شك أن فى « حديث
الاربعة » و « فجر الاسلام وضحاها » فيهما ذلك الامتداد الواضح لاتجاه
جرجى زيدان .



عبد العزيز البشري

ما ذكر اسم عبد العزيز البشرى الا احس الذين سمعوا عنه او عاصروه انه لم يكن كاتباً بقدر ما كان فى ذلك الجيل الذى عرف بالحديث المصقول والفكاهة وخفة الظل والمرح والنكتة ، وقد رويت عنه الفكاهات أكثر مما رويت عنه أمثال الادب ، ولم يخلف هو فى الادب الا تلك الفصول التى جمعت فى كتبه « المختار » فى المرأة ، قطوف » اذ كان يكتب الأدب على أنه لون من المتاع غير متقيد فيه بوقت أو صحيفة .

ولقد كان عبد العزيز البشرى صديقاً لحافظ ابراهيم لا يفارقه ، وكان من زملاء طه حسين فى طلب العلم فى الأزهر ومن رواد صالون آل عبد الرازق ، وهو فى خلال ليله ونهاره صورة من الابتسام والسخرية والفكاهة كأنما لا يشغله شيء ولا يقلقه أمر ، وكأنما هذه الدنيا التى يعيشها رخاء لا أعاصير فيها ولا أقدار ، ولطالما عرف عن هؤلاء الذين يستقبلون الحياة بالابتسام والسخرية ان يكونوا فى أعماق نفوسهم وحياتهم من الضجرين الذين تكثر الآمهم ومتاعبهم .

ان الدكتور طه حسين يراه خير من يصور البيئة القاهرية الخالصة فقد عاش فى أعماقها وخالط رجالها ونساءها .

ولكننا لا نستطيع ان نأخذ هذا القول كما هو فان أسلوب عبد العزيز البشرى حين يضع قلمه على الورق ليكتب لم يكن كطبيعته ، وإنما يبدو فى صورة التكلف والحرص على الألفاظ البليغة ، والمعانى الانشائية التى لا تخلص من العبارات الضخمة الرنانة ، ويقينى أنه لو ترك قلمه على سجيته ل جاءت معانيه أشد وضوحاً ، ولكنها الطبيعة الازهرية التى لم يستطع التحرر منها او التخلص من آثارها .

وبعد ... فما هو مكان عبد العزيز فى الأدب العربى المعاصر ؟

انه لم يتهياً لى يكون كاتباً اديباً ، ولكنه كصنوه المنفلوطى ، كره الأزهر واتجه الى الأدب والقراءة والصحف ، وكتب فى المؤيد واللواء والظاهر ، ولكنه آثر الوظيفة فلم يحترف الأدب كصاحبه ، وعرف فى المجالس وصالونات الأدب وأندية الفكر ، محدثاً فكها لبناً بارع النكتة

حلو الحديث كما عرف حافظ ، وان لم يتأت له أن يكون فى أسلوبه على هذا القدر من السلاسة والإشراق اللذين عرفا فى مجالسه كمحدث .

... ولعله كان يؤمن فيما بينه وبين نفسه انه ليس بكاتب، وان كان قد ترك آثارا لاتزال حية باقية وهو يصف طبيعته هذه « ٠٠ ان عادة لزمتمنى من يوم ضبطت القلم الا احرص على شىء من آثاره المنشورة فى الصحف فاذا وقع لى شىء من ذلك أسرعت الى اتلافه تمزيقا أو تحريقا .

وسبب هذه العادة اننى اول ما عالجته الكتابة كنت أدرك اننى ناشئ لا أجيد البيان فان كانت لى طبيعة فلن يتهى لى الاجادة الا بعد شدة وطول تمرين ، وظللت على هذا دهرا وأنا فى ارتقاب الأحسن مما يثبت للانظار » .

وأضى البشرى ثلاثين عاما وهو يكتب .. ولكنه كان مقلدا . متأنقا لا يوقف نفسه على الكتابة، وانما يرسلها ارسالا فتأتى أحيانا على فترات متباعدة أو متقاربة »

وابرز لون عرف به البشرى فى الادب المعاصر هو تحليل الشخصيات « فى المرأة » وان كانت الاعتبارات السياسية قد حالت بينه وبين توقيهها عندما كان يوالى نشرها فى السياسة الاسبوعية .

وتعطينا هذه المرائى صورة واضحة لعبدالعزير البشرى ، صورة الرجل الخبير بالناس ، الذى عاصر هذه البيئات وعاش فيها ، وعرف من أمورها الخطير والصفير واحاط بما كان يجرى وراء الستار .

ترسم لنا هذه اللوحات تلك الخبرة التى استطاع ان يتميز بها عبدالعزير البشرى كما وصفه الدكتور طه حسين .. « كان رحمه الله من أقل الناس حبا للاستقرار وميلا الى الامعان فى طريق واحد ، ولكنه فطر فى حياته على حب التنقل فكنت تراه مصبجا فى هذا الحى من أحياء القاهرة ملما بدار الكتب او قريبا منها فى قهوة من قهوات باب الخلق ، فاذا صليت العصر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة فى قهوة من القهوات التى كان الادباء يختلفون اليها فى حى الازبكية فاذا صليت العشاء رأيته فى غير حى من أحياء القاهرة » .

... وهكذا عاش الشيخ عبد العزيز يؤثر التنقل فى شتى الاوساط والطبقات وقد اكسبه هذا اللون من الحياة خبرة واسعة بالمجتمع

المصرى فى كل خصائصه ونقائصه ، كما افاده احاطة شاملة بما يؤثره
ابناء كل طبقة من طبقات هذا المجتمع سواء كان ذلك فى البيت أو فى
المقهى أو فى الشارع . وسواء كان ذلك مما يجرى فى حياة الناس العامة
أو فى خلواتهم الخاصة ، ومن ثم كان أروع الكتاب وأبرعهم اذا تحدث
عن تطورات المجتمع القاهرى ، وما طرأ على حياة أبنائه من شتى الطوائف
والطبقات ، وما جد فى حياة الناس بين الامس واليوم من تقاليد
واصطلاحات .

تعطيك «مرائى» عبدالعزيز البشرى هذا الفهم وتملاً نفسك ثقة
بخبيرته هذه فهو يتناول فيها شخصيات مصرية ، كانت لامعة اذ ذاك
فى محيط السياسة والادب والفكر يتناولها فى قوة وفى جرأة وفى
سخرية ، الا حين يتصل الامر بسعد زغلول .

وقد صور فنه فى هذه المرائى فى عبارات واضحة .. « .. والغاية
التي تذهب اليها » المرأة « هى تحليل «شخصية» من تجلوه من الناس .
والتسلل الى مداخل طبعه ومعالجة ما تدسس من خلاله ، لتقص هذا
على القارئ فى صورة فكهة مستملحة » .

ويذهب البشرى فى تصوير المجتمع واحداثه وكل ما يتصل بالناس
فيه وله قدرة على ايراد النكتة أو تشويق السخرية ، لولا ذلك التكلف
الذى يبدو على أسلوبه من حين الى حين .. عندما يريد أن يحيى لفظا
ميتا ، وهو فى هذا الجانب قريب الى الرافعى .. كما يبدو قريبا الى
المازنى فى تناوله لحديث المجتمع ، مع قاهرة أصيلة واضحة المعالم
حفظها له أنه .. ابن مصر .. اذ لم يخلط فنه بالآداب الاوربية ...
وموضوعه « الشحاذون والباعة المتجولون » مثل لما نقول وهو عصرى
الرأى بالرغم من ثقافته العربية الخالصة ، وحديثه عن اهل الفن
والموسيقى والفناء والتمثيل ، يدل على صلة دائمة متجددة قائمة منذ
عهد بعيد .

وكان فى مطلع شبابه صديقا لطفه حسين ، ثم صاحب حافظ
ابراهيم حتى لم يكن يرى أحدهما فى مكان ما ، دون أن يكون معه صاحبه
وقد ظل طه يحب عبد العزيز ويضمهر له الود ويذكره راضيا عنه حتى
اذا ما قضى اكرمه حين اصدر له مجموعة «قطوف» .

« .. واني لأراني مع عبد العزيز فى تلك الغرفة التي كان صديقنا
على عبدالرازق قد استأجرها فى ربع من ربوع خان الخليلي ، وكنا

نلتقى فيها حين نتفرق عن دروس الفقه وحين يرتفع الضحى ، لنقرأ بعض كتب الاصول او بعض كتب البلاغة ، وكان عبدالعزيز يلهينا بدعابته وفكاهاته عن جد البلاغة والاصول ثم لم يلبث ان ضاق بهذا الجد فانسل منه ، واقمنا نحن على هذا الجد ننشق فيه حياتنا ونزعم لانفسنا اننا نقضى به العقول والقلوب وانى لارائى مع عبد العزيز وعلى عبد الرازق فى هذه الغرفة نفسها بعد ان نصلى العصر ، نقرأ معا كتاب الكامل للمبرد وكان مزاج عبدالعزيز وتندرته يصرفنا عن هذا التحصيل كما يصرفنا عن ذاك » .

.. ولعل هذه الصورة تعطينا تأكيدا بأن « عبد العزيز البشرى » كان فى آخر مراحل حياته شبيها به فى أول مراحلها ، هذه النفس العذبة الصافية المحبة للفكاهة والطرافة والحياة ، المقبلة على جمال الحديث وتشقيقه ، المفرقة احيانا فى السخرية ، الراغبة الى الادب تكتبه بين حين وحين وتتناوله على هذه الصورة من التكلف الواضح والمساناة الطويلة ، ثم غشيان هذه المجالس التى يضطرب فيها الادباء والساسة ، وقد فرض عبدالعزيز البشرى نفسه على الادب ، كاتباً من البلقاء ذوى الديباجة الرصينة والاسلوب البيئى الى صف الرافعى والزيات والمازنى . ولو أتيج لعبد العزيز أن يوغل فى الصحافة كما حدث للمازنى أو للمنفلوطى اذن لتحول اسلوبه الى شئ من اليسر والتبسط .

ولست اوافق الدكتور زكى مبارك على رايه فى اسلوب عبدالعزيز البشرى « ٠٠ البشرى كاتب « على الطريقة البشرية » كاتب يذكر كل سطر بأنه أديب يتصيد الأوابد من مجاهيل القاموس واللسان والأساس ، والكاتب الحق هو الذى يشغلك بنفسك ، ويوجهك الى مصيرك المنشود ، ويفرض عليك درس غرائذك وأهوائك دون أن يفكر فى حملك على الاعجاب بخصائصه الانشائية ، ولو شئت لقلت ان الكاتب الحق لا يخطر فى باله حين يكتب انه من اصحاب الاساليب لأن الكاتب العظيم تصبح الكتابة عنده من وحى الفطرة والطبع ، فأين البشرى كاتباً من هذه المعانى ؟

هو رجل صخاب ضجاج يدق الاجراس الضخام حين يدخل القاعة للصيد ، هل سمعتم بالرحا التى تطحن القرون ؟ هى البشرى ، فى بعض نشره القعقاع (١) » .

لست اوافق زكى مبارك وانما ارى أن البشرى يحرص على أن

تكون آثاره غاية في القول والاجادة ، وهو كلف بالجاحظ محب له الى
ابعد الحدود ، ولذلك تردد كثيرا في أن يواجه الجماهير بكتاب مطبوع ،
حتى انه يقول في مقدمة كتابه في المرأة « .. وجعلت أعود على تلك
المرايا بألوان التهذيب ، واستدرك ما عسى أن تكون قد فوتت العجلة
من فنون المعاني ، وأعالج ما اضعفت السرعة من القول وأوهت من
نسج الكلام .. »

واذا نحن قرأنا فصلا من فصول عبد العزيز بشرى .. وليكن
« في الطائرة » مثلا لوجدناه غاية في الرشاقة والجمال والابداع .

ويصدق عليه هنا وصف الدكتور طه حسين بأنه « كان من القلة
القليلة النادرة التي امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل
والتي ظفرت من هذه الخصال بحظ غريب في طبعه وفي جوهره وفي
مادته .. »

ومن هذا الفصل العذب والحلو .. ننقل هذه العبارات :

« .. ونسيت أن أقول لك اني حينما دعيت الى ظهور الطائرة
تفقدت شيئا مهما جدا وخاصة في هذه الرحلة ، فلم أجده وكيف لي
بإصابة مالم يكن ووجدان ما لم يخرج بعد الى الوجود .. ذلك انني
انما تعودت اذا ركبنا القطار او السيارة ان أقرأ حزب البر ، فاذا
علوت السفينة قرأت حزب البحر ، فمن لي بحزب الهواء .. »

« وأطلق السائق التيسار ، فدار المحرك برهة تزيد على الدقيقة
والطيارة ثابتة في موضعها ، ثم بعثها فزحفت على الارض زحفا رقيقا
ثم استحال جريا وظلت تدور على اليبس ، ولما طال ذلك قلت لصاحبي
لعلنا نبلغ الاسكندرية على هذا الحال برا ، افتراها اذن سيارة افرغوا
عليها هيكل طيارة ، فضحك صاحبي وقال اي ارض ، لانت والله على
جناح الريح ، فالتفت وحققته النظر فاذا انا حقا قد جرت بين الارض
والسما من حيث لا أشعر » (١) .

هذه لمحات من آثاره الادبية غاية في صفاء النفس وحلاوة العبارة،
وهي بعيدة كل البعد عن « طحن القرون » .

والواقع أن أسلوب بشرى فيه رصانة وبساطة ، وكتاباته مزيج
من الجد والفكاهة ، وهي صورة من طبيعته الانسانية فقد بدأ حياته

(١) جريدة الاهرام ١٩٣٣ (المختار) .

فى الازهر يدرس علومه ويقرأ أدب القدماء ، ثم أتيح له - بعد - أن يقرأ
الأدب الحديث ويتصل بالأدب الاجنبى فيما ترجم منه .

وقرأ « الاغانى » واولع بها حتى اذمن قراءتها كما يقول الدكتور
طه حسين « ففصح لسانه الى ابعد غاية من غايات الفصاحة » .

واتصل عبدالعزيز البشرى بالحياة المصرية اتصالا وثيقا ، وعرف
دقائقها فى افراحها واحزانها . وكان متصلا بالناس فى مقاهيهم اكثر مما
كان عاكفا على القراءة والبحث ، وكان يتصل بالزعماء والاوساط
والادباء ، ويتصل بالصحف كما يتصل بالأحزاب ، كما يتصل بالهيئات
الاجتماعية ، وقد امدّه هذا كله برصيد ضخم من الخبرة والفهم ، كان
له اثره فى غزارة مادة أدبه .

ولكن اين المرأة والحب فى ادب البشرى ؟ اننا لا نجدها واضحة
صريحة ولكننا نحسها وراء هذه اللمحات البراقة حين يتحدث عن الفن ،
ونعتقد انه عرف الكثيرات فى محيط المسارح والملاهى ، وكانت له
صبوات ، كان يصده عن تسجيلها انه ابن شيخ الازهر ، ويرده عن
الايغال فيها احساسه بأنه لا يلقى ما يلاقيه اهل الوسامة ، ولعل فكاهته
وطرافة حديثه كانت تفتح أمامه الابواب وتهتك الحجب .



ابراهيم عبيد الفار المازني

في حياة المازني ثلاثة أحداث ضخمة ، وفاة أمه وحادث ساقه
ووفاة زوجته الاولى ، كان يحب أمه في عنف وبصورة لم تعرف الا عند
جبران .

« كانت تقول لي لقد كنت أنا مستعدة ان أعمل يدي في سبيل
تربيتك فكن أنت مستعدا ان تعمل حتى بيدك اذا احتاج الامر ، وكانت
قوية الشكيمة فلا رأى الا رأيها في الأسرة كلها ، وكانت تكفي بالنظرة
الاولى اذا أمكن ان تستغنى عن الكلمة فكنا نتفاهم بالعيون والذين
حولنا غافلون ولا يفتنون الى شيء » .

ولما حضرته الوفاة قالت أعطني ثلاثين قرشا ، ولم تكن بها حاجة
الى ذلك وكنت قد أعددت عدتي لذلك اليوم فأدركت أنها تريد أن تطمئن
على أن معي ما يكفي لنفقات المآتم . كانت حاذقة كيسسة في سلوكها
فلانهر ولا زجر ولا أوامر ثقيلة بغيضة ولا شطط ولا اسراف . ان موتها
هدني فقد كانت أما وأبا وأخا وصديقا » .

وعاش المازني تسع سنوات بعد وفاتها يعيش على ذكراها .

أما ساقه فقد كانت له منها عقدة الى جوار عقده من قصر قامته،
ولقد أصيب بالعرج بلا موجب : « كانت زوجتي مريضة ، فأجريت لها
عملية جراحية وفي صباح اليوم الثاني وقفت الى سريرها وفي يميني
الدواء ممزوجا بالماء في كوب من الزجاج ، وحاولت ان ارفعها بيسراى
وكان السرير عاليا وأنا قصير القامة فشسبت ، فسمعت شيئا يطق
فظننت الكوب قد انكسر ونظرت اليه فاذا هو سليم ، فحاولت ان ادور
على قدمي لارى ما حدث فاذا بساقي اليمنى تخذلنى ولا تحملنى فسقطت
على الارض ثم تبينت ان حق الحرقفة هو الذى انكسر ، وعولجت ثلاثة
أشهر ولكن العلاج كان فيه بعض الخطأ فانحرفت عظمة الساق عن
استقامتها فقصرت عن اختها فكان هذا العرج » .

كان هذا في ١٩١٤ فتغيرت الدنيا في عيني وزاد عمري عشر
سنوات في لحظة وادركتني الشيخوخة في عنفوان شبابي فاحتشمت

وصدفت مضطرا عن مناعم الحياة وملاهى العيش وغمرت نفسى مرارة
كان يخيّل الى أنى أحسها على لسانى » .

وكان الحادث الثالث وفاة زوجته فقد كان يحبها حبا عظيما فلما
ماتت حزن عليها حزنا شديدا « وما أنا الآن ؟! حتى من الاحياء لا يدرى
الناس انى مت منذ سنين ... وانى قبر متحرك كشمشون ملتون أو
جثة لم تجد من يدفنها ، أو صورة باهتة لما كنته فى حياتى » .

ولقد عاش المازنى حياته كلها ولهذه الاحداث اثرها الواضح عنده
... كان فى حياته طموحا الى الحب والعاطفة مما دفع «عبد الحميد رضا»
أن يفتعل له خطابات غرام كان لها أثرها فى حياة المازنى وفى أدبه ، فقد
أحس أن هناك فتاة أدبية تحبه وتضمّر له غراما وجوى فبادلها العاطفة
ولم يكتشف الامر الا بعد وقت طويل .

ولقد كان المازنى شديد التعلق بالحياة ، وكان فى أيامه الاخيرة
يفكر فى الموت تفكيراً متصلاً وقد أحس بالموت قبل وفاته بأسبوعين
فكتب وصيته .

ولكن المازنى بالرغم من هذا الحرمان كان من انفذ كتابنا فى مسائل
المرأة وأمور الحب والعاطفة والزواج ، ذلك هو المعنى الاول الذى يرد الى
ذهنى حين أتناول هذا الكاتب بالدراسة .

لست أدري ما هو العامل القوى وراء هذه القدرة ، هل هى القراءة
أو التجربة أو الاتصال بالحياة الزوجية أكثر من مرة ؟ ولكنى أحس بأنه
ما تناول مرة هذا الموضوع الا وعالجه فى نفاذ ودقة وعمق وفى الوقت
نفسه فى يسر لا أجده عند كثير من كتابنا المعاصرين .

فالمازنى هو أحد هؤلاء الرواد الذين صنعوا هذا الادب المعاصر
وتركوا فيه آثارا قوية بعيدة المدى يقدرها كل من يحاول دراسته ، وليس
كما حاول هو أن يقول حين صور هذا المعنى « ... ما مصير (١) كل
هذا الذى سودت به الورق ، وشغلت به المطابع ، وصدعت به القراءة ،
انه كله سيفنى ويطوى بلا مرأى ، فقد قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد
وأن يشتغل أبناءه بقطع هذه الجبال التى تسد الطريق وتبسوية الارض
لمن يأتون بعدهم ، ومن الذى يذكر العمال الذين سواوا الارض ومهدوها
ورصفوها ، من الذى يعنى بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهيد الذين أدموا
أيديهم فى هذه الجلاميد .. وبعد أن تمهد الارض وينتظم الطريق يأتى

(١) حصاد الهشيم .

نفر من بعدنا ويسيرون الى آخره ، و يقيمون على جانبيه القصور شاهقة
باذخة ، ويذكرون بقصورهم ونسى نحن الذين أتاحوا لهم أن يرفعوها
رائعة ، فلندع الخلود اذن ولنسأل : كم شبرا مهدنا من الطريق ؟ » .

بدأ المازنى حياته مدرسا - ثم آثر الصحافة والادب ، فانصرف عن
التدريس مبكرا ، وظل يتقلب فى هذه الدوامة الضخمة ثلاثين عاما ، لم
ينقطع فيها عن الكتابة والانشاء والترجمة يوما واحدا فهو يقرأ ويستوعب
ويذهب هنا وهناك يطالع الحياة ثم يعود الى قلمه وورقه .

« ما أظن الا أن الله جلت قدرته قد خلقنى عن طراز عربات الرش
التي تتخذها مصلحة التنظيم - خزان ضخيم يمتلئ ليفرغ ويفرغ ليمتلئ
- أحس الفراغ فى رأسى وما أكثر ما أحس ذلك فأسرع الى الكتب ألتهم
ما فيها وأحشو بها دماغى حتى اذا شعرت الكظة ، وضايقتنى الامتلاء
رفعت يدى عن ألوان هذا الغذاء وقمت متثاقلا متثاقبا مشفقا من التخمه
فلا ينجينى الا أن أفتح الثقب وأسح ... »

وشارك المازنى فى تحرير عدد من الصحف اليومية والاسبوعية
لا يحصرها الاستقصاء، وهى صحف منوعة من الناحية السياسية اتصلت
غالبا بجميع الأحزاب والهيئات ، وتطور أسلوبه تطورا كبيرا ، واشترك
منذ الشباب مع العقاد وشكرى فى الدعوة الى المذهب الجديد الذى كان
له صدى بعيد المدى فى تحديد معالم الادب المعاصر .

وثقف المازنى نفسه بالادب الانجليزى وأوغل فيه وتحول فيه من
لون الى لون ومن اتجاه الى اتجاه ، وكان لعبد الرحمن شكرى الفضل فى
توجيهه الى الألوان الرفيعة فيه .

يصف هذه الفترة من حياته الفكرية . « كنت فى شبابى قليل
الثقة بنفسى بالرغم من غرورى ، فكنت أراجع الكتب أكثر مما أراجع
عقلى ، ولا أنظر بعينى بل أفكر بعقول غيرى ، وأنظر بعيونهم ، ولهذا
كانت شخصيتى مستترة وقلما تتبدى ، وكان الذى يتبدى هو اطلاعى ،
أى ثمرة دراساتى وقراءاتى » .

ومضى المازنى يشق طريقه الادبى فى قوة، فتقلب فى كتابة المقالات
والفصول الادبية والنقدية والتحليلية ، ونظم الشعر ثم انصرف عنه
واتهم نفسه بأنه ليس شاعرا ثم عرف طريقه أخيرا واستقر عليه عندما
بدأ يكتب القصة .

وهو يؤمن بأن «لقمة العيش» هى التى ترسم الطريق الذى يختاره

الكاتب كما قال لأحد الذين استشاروه .. « ستكتب فى السياسة وفى أسعار القطن والبورصة بل وفى هبوط أسعار الحيش وارتفاع أسعار الصفيح اذا أرادت لك لقمة الحبز أن تكتب فى ذلك » .

وكان يؤمن بأن الكاتب لا يستطيع أن يجيد فى أكثر من لون : فلا يكون زجالا وقصصيا وشاعرا فى وقت واحد ، وقال لمحدثه « .. لو أن أم كلثوم رقصت الى جانب غنائها لما أصبحت أم كلثوم ، فلا تحاول أن ترقص وتغنى ، والا عجزت عن الرقص والغناء ، ارقص أو غن ، وستصل حتما » .

ولقد كان المازنى ينعى على الادب أنه لا يكفل للمتجرد له حياة أو معاشا وقال : انه لو فتح دكانا لبيع الطعمية لكان ذلك أكسب له من انتاج الادب ، وكان يسخر من نفسه ومن مؤلفاته التى يبيعها بالاقعة لبعض بائعى اللب والترمس غير أن رأيه استقر أخيرا على أن يفتح دكانا أدبيا يستعيز به عن دكان الطعمية ، وقد شغل المازنى بالكتابة السياسية ولكن لونه السياسى لم يكن واضحا وان عرفت كتاباته السياسية بالنقد اللاذخ والسخرية العميقة .

ومازنى كاتب فكه ساخر ولكنه عميق الغور واسع الافق، انطبعت فى نفسه صور الحياة المصرية فى مختلف مظاهرها غاية فى القوة والوضوح فما أظن أن كاتباً استطاع تصوير هذا الشعب فى أفراحه وأحزانه وأعياده ومواسمه كما فعل المازنى .

ولعل ساقه التى هيضت فى شبابه كانت بعيدة الأثر فى طبيعته وفى كيانه كله ، فهى قد جعلته «فار مكتبة» بكل معنى الكلمة ، إذ أثر القبوع والانزواء والاعتزال مما أتاح له أن يظفر بقدر ضخم من الثقافة والقراءة والتأمل .. وقد أثر فى مطلع شبابه أن يسكن فى الصحراء بجوار مقابر الامامين ، وكان لهذا المعنى فى نفسه صورة رائعة « .. بيتى (١) على حدود الابد لو أنه كان للابد حدود .. الى يمينى الصحراء .. والى يسارى الصحراء .. وفى كل ناحية يرتدى فى فجائها الطرف ، وفى كل يوم اهبط الى ساحل الحياة واتريث على حفايفها برهة أشهد عباها المتدفق ينهزم على الرمال ويتكسر على الحصى والصخور ، ويقذف بأشلاء غرقاه ، ثم يرتد ليثوب بسواهم مطوين فى أكفان اثباجه ، محمولين على نقوش من مريد أمواجه » . ويروى عن نفسه أنه فى صباح

يوم عرسه ، دخل الى مكتبته واعتكف فيها طول يومه غير مبال بهذه الانسالة الجديدة .

وأسلوب المازني له طابعه المثير ويمكن اكتشافه ولو لم يوقعه صاحبه وهو يحب الازدواج ، وقد كان كلفا به في فجر أدبه ثم انصرف عنه شيئا ما ، ويبدو من وراء كتاباته هادئ النفس . مركز الاعصاب ، كأنما لا يعرف العصبية ولا يضيق بالحياة ، أو كأنه ليس هناك ما يزعجه . كما يبدو في كتاباته ساخرا ، مستهينا بالاحداث ، لا يحفل بأمر من أمور الدنيا ، ولا يضيق بمنكر من صروفها ، ولا ينزعج لأى أمر مهما جل ، وهو فيما يصور نفسه يستقبل الحياة طروبا ضاحكا باسماء مشرقا ويتحدث عن الدنيا كأنما قد نفّض منها يده ، فلم يعد يطمع فى جمال أو مال أو متاع ، أو كأنما قد حيرت له الدنيا فلم يعد يحفل بما يقبل من أمرها أو يدبر .

ويصور المازني قراءاته فيقول « . . (١) كنت أقرأ من قبل الادب العربى وآثار الفكر الاسلامى . . وباللغة الانجليزية الادب الكلاسيكى ، ولست أحب الادب الفرنسى ورأيت فيه أنه فصيح بليغ ، ولكنه ليس عميقا كالآداب الاخرى ، وقد شرعت منذ بضع سنوات أعيد دراسة الادب العربى على نحو منظم ، وليس لى طريقة خاصة أو وقت للقراءة فكل وقت صالح لذلك ، وكل مكان أستطيع فيه القراءة ولو كان حماما بغير ماء ، وانى بخلاف غيرى لا أدون ملاحظات ولا أضع علامات على الكتب وقد بعث ما اقتنيت منها مرتين ، مرة بخسارة جسيمة وثانية بدون خسارة . . . »

ويصور زكى مبارك أسلوب المازني فيقول انه « (٢) بدأ حياته النثرية بالطريقة الجاحظية وهى تقوم على أساس الازدواج ، وقد وفى المازني لهذه الطريقة أصدق الوفاء فى أمد يزيد على عشر سنين ، ثم جنى المازني على نفسه بالكتابة اليومية ، ثم ابتدع المازني طريقة جديدة هى كتابة أكثر مقالاته وقت انشائها بالمكاتب فينشئ المقال على أصوات طق . طق . فمن هاله أن يرى بناء الجملة عند المازني الجديد يخالف بناء الجملة عند المازني القديم فليذكر هذا التاريخ فى حياة هذا الفنان . . »

ويقول توفيق الحكيم ان المازني يطلق روحه على السليقة . فهو يكتب بدون تكلف وبدون أن يراعى قول الناس فيه ، ان المازني نفس

(١) مجلة المصور ٢٤ من فبراير ١٩٤٤ .

(٢) الرسالة ١٠ من نوفمبر ١٩٤١ زكى مبارك .

مصبوبة على الورق فى صفاء ٠٠ وليس بالنفس الحبيسة فى اطار الوقار
الوقار المصطنع أمام الناس » .

ومن أبرز جوانب المازنى ، جانب الترجمة عن الانجليزية فهو بارع
فيه الى أبعد حد ٠٠ « لست (١) اغلو اذا قلت انى لا أعرف فيما عرفت
من ترجمات للنظم والنثر أدبيا واحدا يفوق المازنى فى الترجمة من لغة
الى لغة ، ويملك هذه القدرة شعرا كما يملكها نثرا ، ويجيد فيها اللفظ
كما يجيد المعنى والنسق والطلاوة » .

وقد عن المازنى فى فترة من فترات حياته (١٩٣٣) أن ينكر على
نفسه أنه شاعر ، وضايق العقاد هذا فحمل عليه ٠٠

يقول المازنى « انى مخلص فى استضعاف شعرى أو ما كنت أزعمه
شعرا من كلامى ، ولقد هممت غير مرة أن أكتب نقدا له ليكشف عن وصفى
بأنى شاعر من لا يزالون يحسنون الظن بى ، ولكن كراهيتى له كانت
تصرفنى فى كل مرة من النظر اليه ٠٠ »

ويقول العقاد « لم أر أحدا يجور على المازنى كما يجور المازنى على
فضله وقدره ، وقد طاب له منذ سنوات أن يدأب على الاستخفاف بعمله ،
والاستخفاف بجدواه ، فأنكر على نفسه الشاعرية وأنكر عناء ما يكتب
وينظم ، وما عسى أن يكتب وينظم ، وقد تغنى أسماء كتبه عن الاستشهاد
فيها بما قاله فى تصغير فضله وقدره ومن هذه الأسماء حصاد الهشيم
وقبض الريح ٠٠ »

واستشهد العقاد بكلام كتبه المازنى فى هذا المعنى وهو قوله « وأعلم
أنك اذا انزلت نفسك دون المنزلة التى تستحقها لم يرفعك الناس اليها ،
بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضا ، ويزحزونك الى ما هو
وراءها لان التزاحم على طبيبات الحياة شديد ، والجهاد والتنازع لا يدعان
للعادل والانصاف مجالا للعمل » ، ثم علق على ذلك بقوله « ان المازنى
يستخف بعمله لأنه يستصغر حياة الانسان فى جانب آماة الخلود ومصائر
الاقدار ، ولأنه ينظر الى أعلى ولا ينظر الى أدنى فيقيس ما عمل بما أراد أن
يعمل » .

وقد صور الزيات « حياة المازنى الادبية » ٠٠ « عرفته فى خريف
١٩١٤ يوم دخلنا المدرسة الاعدادية الثانوية معلمين وكان يومئذ فى مرح
شبابه وميعة نشاطه يتوسط باحة الادب ويطرق باب الشهرة ، ويحاول

(١) عباس محمود العقاد : الاساس : ٧ من ايناير ١٩٤٨ .

هو وصاحبه العقاد وشكرى أن يشقوا طريقهم الى المجد فى أرض غليظة صلدة يقوم فى بدايتها عقبتان صاحب «الشوقيات» بشعره الرائع ، وصاحب « النظرات » بنثره البليغ ولكنهم كانوا أصحاب معول ومسطرين يهدمون بالنقد والثلب والتجريح ويبنون بالتجويد والتجديد والدرس .

ووصف الزيات موقف المازنى عندما يشتبك فى خصومة ، يقول « .. على أنه كان اذا أكره على الخصومة شديد العارضة حديد القلم ، يقرع صاحبه بالتهكم أكثر مما يقرعه بالحجة » .

وكانت للمازنى فى فجر حياته الأدبية ، يوم أن كان يحمل المعول ، آراء ولكنه عدل عنها بعد ذلك .

وقد ظل العقاد والمازنى على صداقة الشباب ، وكانت تقوم بينهما بعض المناورات والمساجلات ولكنها كانت تمضى رقيقة هينة ، وإن اختلف المازنى والعقاد فى كثير من آرائهم السياسية والأدبية ، وبقيت كلمة « المذهب الجديد » قاصرة عليهما ، فقد كانت هناك مدرسة السياسة، ولها اتجاهها نحو الثقافة الفرنسية، وبقي خلاف خفى بين المدرستين ظهر حينما اشتبك العقاد وطه حسين فى مساجلة « لاتينيون وسكسونيون » واضطرت الصحافة المازنى الى أن يكتب دون استعداد ، يتناولها فى سرعة ويكتب عنها دون مراجعة أو تعمق .

وقد منحت الكتابة السياسية « المازنى » الشهرة كما منحتها لكثير من الادباء الذين لو اشتغلوا بالادب الصرف لكانوا أقل درجة فى الشهرة مما هم الآن .

ذلك أن أدباءنا كانوا يتناولون العمل الأدبى كفرع من العمل السياسى ، ويفردون له يوما من أسبوعهم الملى بالصراع الحزبى ، وكان لهذه الكتابات السياسية أثرها فى الأسلوب الأدبى وطريقة تناول الموضوعات ، فقد طغت السياسة على الأسلوب فجعلته ضعيفا ، ليكون قريبا الى نفسيات الجماهير ، كما طعمته بذلك اللون الحميم فى التعابير وأخشى أن أقول انها خلقت الاغراق فى الخصومة والبعد عن الانصاف ، ولكن المازنى يتميز فى هذه الناحية بأنه لم يكن الكاتب العنيف الثائر ، ولا المعارض الجريء .. ولا المتطرف الذى يمسك بطرف الجبل وإنما كان هادئا ، يكتب السياسة بروح الرياضى ويعمل فى ميدانها على أسلوب من السخرية والتهكم .

وكان المازنى ضخم الانتاج، يكتب كثيرا ويكتب فى كل وقت ولذلك

فأنت لا تجد أدبه درجة واحدة في الجودة ، ولا يفض هذا من قدره ، فهو لم يتفرغ للادب وحده وإنما عالج الصحافة ، والصحافة مهنة السرعة ومهنة الكتابة العاجلة .

فاذا ذهبنا ندرس شخصية « المازني » من أدبه ، وقفنا على كثير من الآثار المتناقضة التي لا تعطى صورة واضحة . . . وقد صور هذا توفيق الحكيم « . . . » ان المازني أكثر الكتاب تصويرا لنفسه ولحياته وبيته ، ومع ذلك فالويل لمن يؤرخ له ، ان قدرة المازني على الخيال والاختراع واختلاط حقه بباطله قد أسدلت حجابا كثيفا على وجهه الحقيقي ، فأنا عاجز عن أن استخلص من بين رواياته الكثيرة اللذيذة التي تعج بالنساء المدللات والأوانس الرشيقات امرأة واحدة أستطيع أن أقول انها كانت صاحبة الشأن الاول في حياته ، على أن الذي لا شك فيه عندي ولا نزاع أن المرأة موجودة بالفعل ولولاها ما استطاع المازني أن يكتب القصص .

فاذا اتصل الحديث عن المازني والحب وجدنا قدرا كبيرا من الآثار التي تدل على الفهم العميق وعلى التأثير بهذه العاطفة وبلوغ أعلى مراتبها .
» أحببت مرات عديدة ، فاني أبدأ كما قال في الأستاذ العقاد .

أنت في مصر دائم التمهيد بين حب عفا وحب جديد والسبب في ذلك أن عمر الحب عندي لا يطول الا ساعة أو ساعتين ، أو ليلة أو ليلتين - الى أن أمل - وما من واحدة أحببتها الا تمنيت على الله ان تنتهي الى القدرة لاصلح بعض مالا أرضى عنه ، وليس هذا من الاعتراض على خلق الله سبحانه وتعالى ، حاشا وكلا ، وإنما هو اشتها الكمال كما أتصوره ولا كمال في الدنيا مع الأسف (١) .

ويضيف الأستاذ محمد محمود حمدان - مؤرخ المازني - « . . » على أن أهم ما يذهب اليه المازني في فلسفة الحب هو رأيه المعروف القائل بالتعدد ، وأن القلب الانساني يتسع لاكثر من حب واحد في وقت واحد ، أو في أوقات متقاربة ، وان اختلف كل حب في القوة والنوع والوجهة .

ويؤكد المازني أن الانسان لا يعرف التوحيد في الحب ، فلا الرجل يعرفه ولا المرأة تعرفه ، والحقيقة أنه أكذوبة ضخمة وخرافة يلهج بها اللسان ولا يصدقها القلب .

ولكن المازنى على كثرة ما أحب لا يؤمن بأن المرأة مصدر وحي للأديب .. « لست ممن يقولون أن المرأة هى وحي الأديب والفنان أو العالم فان فى هذا القول مبالغة وتخليطاً ، والذين يلهجون بهذا الكلام الفارغ يعنون فى الاغلب المرأة بالمعنى الجنسى » .

« .. ان كل ما أعرفه فى هذا الحب ، هو أن المرأة أداة لراحة أعصاب الرجل من الناحية الجنسية ، ومتى استراحت الاعصاب وسكنت وأعفيت من الاضطراب ، تيسر التفكير الهادئ المتزن والانتاج فى يسر وبغير اجهاد .. واستطاعت الاعصاب أن تتحمل جهد العمل بلا كللى أو ملل ، أى أنها من هذه الناحية وسيلة للانعاش والتنشيط » .

ومازنى على نقبض صديقه العقاد ، يؤمن بالزواج وينفر من العزوبة .. ويقول انه لو كان أعزب لما أطاق الحياة .

غير أن الصور الأدبية التى كتبها المازنى على هيئة قصص لا تضع أمامنا صورة كاملة لحب كبير من ذلك النوع الضخم أو العاصف الذى يكون عادة بعيد الأثر فى حياة صاحبه ، وهو بطبيعته يميل الى الانطواء والاعتكاف ، ويعزو ذلك الى شعوره بعيوبه فقد هيضت ساقه فى شبابه فقصرت على حد تعبيره ، كما أنه يصف نفسه بسرعة النسيان ولكنه لا ينسى الصور مهما طال عليها الزمن . يقول « وشر ما أعانيه من ضعف الذاكرة أننى أنسى الاسماء أول ما أنسى حتى ليكبر فى وهمى أنه سيجىء يوم أنسى فيه اسمى ، وأنا اتفائل واتطير .. وفى بيتى وجهان أكره أن أصبح عليهما .. أحدهما وجهى ، ويشرح صدرى جداً أن أرى الهلال فى أول الشهر القمري ومعه شئ من الفضة ، ومن عيوبى اسرافى وجبنى ، فكل مال افيده يجب أن تخلو منه يدى فى أقصر وقت والا شقيت واضطربت أعصابى » .. ويقول عن نفسه انه جامد العين فما يعرف أنه بكى لحادث مهما كان خطيراً وقد سئل عن أستاذه الاول فقال انه « الفقر » ويقول انه « هو الذى آتانى القوة والقدرة على الكفاح وعلمنى التسامح وعودنى ضبط النفس وجنبنى أن أحترم المال لذاته » .

ويخاف المازنى الموت ، وقد حاول أن يتداوى منه فنقل بيته الى حيث أجدات الموتى وحيث كل قبر يصير قبراً مراراً . ويفزع حين يرى الشيب قد وخطه ، ولا يجد له علة الا هذه الصناعة القاسية « وأشعر كآنى شيوخ هرم محطم الاعصاب مهدد الكيان ، ألسنت صحفيا ، ألا تتقاضانى هذه الحرفة - التى أدركتنى - أن أكتب كل يوم ولا أستريح يوماً ، أليس معنى

هذا أننى فى كل يوم حين أريد الكتابة أقسر أعصابى على أن تكون فى حالة لم تنتهياً لها تهيؤاً طبيعياً .

ويؤمن المازنى بأن على الكاتب أن يرضى ذوقه الفنى أولاً دون أن ينظر الى القارئ وأهوائه ، ويؤمن بأن كل رأى من آراء الكاتب له من الهوى أثر ، ولا يزال الانسان يوحى الى نفسه حتى يصير الامر عنده عقيدة راسخة .

وبعد المازنى ثانى رواد القصة الطويلة فى الادب العربى المصرى الحديث ، ولم يرحل المازنى فى حياته كثيراً ، وهو فى هذا شببيه بصديقه العقاد ، وفى أيامه الاخيرة كان يجلس الى النافذة ليكتب بين السادسة والعاشر صباحاً وقد أثر الكتابة بالآلة الكتابة فى سنواته الاخيرة .

وبعد فالمازنى ولا شك رائد من رواد الادب العربى المعاصر ، قام بدور واضح خلال ثلاثين عاماً كاملة ، كان فيه أحد أصحاب المذهب الجديد الذى كان بعيد الاثر فى تطور الشعر والنثر العربى الحديث .



محمود تیجور

ولد في العقد الاخير من القرن التاسع عشر واستشرف مطالع الشباب والنضج في الوقت الذي وضعت فيه الحرب أوزارها ، وتفتحت معالم روحه وحاسته الفنية في « بؤرة » الثورة المصرية ، وقضى أيام شبابه بين درب سعادة وعين شمس ، ونشأ في بيئة كلها ورق وأدب وصحف وشعر ، حيث كان والده « أحمد تيمور » يعقد صالونه ومن حوله أقطاب الرأي وقادة الفكر :

ورأى عمته عائشة التيمورية واستمع اليها وقرا لها ، وشاهد « محمد تيمور » وهو يتطلع الى المجد .

مرض في أول شبابه « بالتيفوئيد » فلزم فراشه ثلاثة ، فكانت فترة حضانة لأفكاره واتجاهاته فتحت له أبواب المطالعة والدرس ، وأتيح له أن يعرف « موباسان » ويحبه ويتعشق آثاره فيتعقبها ، « مما لا ريب فيه أن حادث المرض كان بداية طور جديد في حياتي الادبية نقلني من دور التردد الى دور اليقين ومن دور الالام والهوادة في التحصيل الى دور الجهد فيه والاستيعاب (١) » .

ثم سافر تيمور الى أوروبا ، وأمضى فترة تزيد على العامين بين سويسرا وباريس ، فكان هذا من العوامل البعيدة الاثر في تكوين شخصيته « تفرغت للقراءة واتصلت بالادب الاوربي أقرب اتصال ، وطالعتني اثناء اقامتي هناك مرثيات ومناظر هزت نفسي وتغلغلت في صميم قلبي ، كما أن خبرتي بالحياة ومعرفتي لها قد اتسعت وتنوعت فكان لهذه الحياة الجديدة التي عشتها هناك أثر لا ينكر في تطور تفكيري » .

وثمة شيء آخر كان له اثره في تكوين شخصية محمود تيمور ، ذلك هو المرض لقد تالبت عليه الامراض منذ الطفولة ، « وأذكر بالخطر طبيبي الاول فقد كان يجمع بين الطب والطبية ، أى بين العلم والصداقة ، فلم يكن يداوى الجسم وحده بل يداوى معه النفس ، كان طبيب الطفولة هذا رجلا نحيفا ذا طربوش أبيض ووجه أسمر مهزول ، ولا أدري لماذا يخطر ببالي كلما شاهدت صورة « دون كيشوت » هذا الطبيب أو بالاحرى هذا الصديق » .

(١) شفاء الروح .

« .. منذ الصغر والعلل تتردد على حتى ألقتها الآن وأصبحت غير غريبة عني ، منذ سنين طويلة وأنا في رقابة الطب في مأكلي ومشربي ، وفي نومي ويقظتي .. وهكذا كنت أحس في أعماق نفسي بنقص يحتجزني عن الاستمتاع بما ينعم به غيري .. هذا النقص يدفعني ولا يزال يدفعني الى أن استكمل في الخيال ما عجزت عنه في الواقع » (١) .

هل كان هذا المرض القابع في الأمعاء ، بعيد الأثر في شخصية محمود تيمور وأدبه .. « أنا أحرص أول ما أحرص على ألا يعكر صفو هذا الجو ذلك المعكر الأعظم .. وأعني به المرض الذي اتخذ معدتي محلا مختارا له يبعث الى بمعابثاته النكدة ، فلا يعينني حين أجلس الى مكتبي أن اتفقد القلم والقرطاس بقدر ما يعينني أن أتفقد أعواني الأمناء من علب وحقاق وقوارير ، فهذه علبة الاسبرين ، وهذا حق البيكربونات ، وتلك قارورة النعناع .. »

ومع ذلك فانت حين تطالع آثار محمود تيمور تجد صورة من الهدوء المطبوع والعاطفة الخصبة ، والبساطة الواضحة .

تقرأ له فترى روح البشاشة والفرح والمرح ، تكاد تنتظم أدبه كله روح التفاؤل والاشراق ، فلا انطواء هناك ولا تعقيد ولا تشاؤم ، تجد عنده التفاؤل بالأشياء والطبيعة والناس ، وتجد عنده الأضواء المشرقة لا الظلال القاتمة .

وتبدو « حياة » تيمور هادئة مطردة من وراء أسلوبه وفنه ، وليس بها مغامرات أو فجوات ، ويبدو هو شديد الحيوية ذاخر المشاعر ، يسكب نفسه على الورق في صراحة ووضوح .

وأنت ترى أناقة ملبسه حين تطالع أسلوبه الانيق ، ولكنك لا تلبث أن ترى روح « الشعبية » واضحة ، فيخيل اليك أنك ترى محمود تيمور وهو يختلط بالحياة ويشاهد ويسمع ويتأمل .

لا يضع تيمور على عينيه منظارا أسود حين ينظر الى الحياة ، أو حين يرسم الحياة .. بل على عكس ذلك تماما .. تراه مشرق النظرة يتوسم في الحياة الضياء والنور والطلاقة ، ويرى أبهى جوانب الحياة : الحب والجمال . « .. ان النزعة المسيطرة على الوجود هي النزعة الحيرة ، وان بذرة الخير أصيلة كامنة في تلافيف هذا العالم ، وهي التي تسير به دائما الى

(١) شفاء الروح .

هدف معين هو منفعته ورقيه، وبذرة الخير موجودة في كل الكائنات صغيرها وكبيرها حقيرها وعظيمها، فهذه الذرات التي يتكون منها جميع ما في العالم من كائنات مكونة من كهارب يسير بعضها حول بعض، وتسير حول نفسها في حركات هي أوفى ما وصل اليه النظام والتناسق، أى أرقى ما وصل اليه « الجمال » وهي في حركاتها متماسكة بقوة الجاذبية، أى بقوة الحب » .

وهو في مجموع ما كتب رجل مثل عليا يحب زمهرير الحياة ويغرم بالمصحراء ويحب الاجواء الهادئة الساكنة التي تعيش على الانتاج ويذهب في البلاد طولا وعرضا، يستقصى ويبحث ويتصفح الوجوه، يرى جمال الكون عند بحيرة « لي مان » وشامخات العماثر وناطحات السحاب في نيويورك، ويستمتع الى هدير الامواج الصاخبة عند شلالات « نيا جرا »، ويستشف روعة الطبيعة فوق صخور لبنان، فاذا دخلت « صومعته » أو حرمة المقدس طالعك التماثيل الثلاثة التي استوحى منها قصصه « فرعون الصغير، بنت الشيطان، احسان الله .. » وهو معجب بهذه التماثيل مشغوف بها، وهو يربط بين قلمه وفنه بوشائج عاطفة صادقة حين يقول « ربما كان حكم الكاتب أيسر مثل نضربه، فيه يتبدى ذلك الضرب من احساس الفنان بالجماد فقد تتوثق اللفة بين الكاتب وقلمه فلا يبغى بديلا به، وان بلى في يده » .

وتبدو حياة تيمور وليس فيها أحداث ضخمة، أو مغامرات جريئة، « لا حين امتحنه القدر بفقد ولده الذي لا يحب هو أن يسميه .

لقد هن الحادث تيمور هزا عنيفا، ولكنه استطاع أن يستمسك وأن يصمد ... وكان من آثار هذا المصاب كتاب خالد هو « أبو الهول يطير » حيث يبدو تيمور في صورة الصوفي المؤمن .. حين يطلق نفسه من كل قيد، ويصور آلامه في حنان بالغ .

« .. لقد تطايرت من بيننا يا بني . كما يتطاير العُصْر من قارورة رفعت سدادتها فلم نعد نراك بأبصارنا، ولكننا ظللنا نشمك طيبا تشيع فيما حولنا من اجواء .

أى بني .. ها هو ذا كل شيء قد اختفى من حولنا، فلم يعد الا أنت وأنا وحدنا، لقد تزايدت أصوات الاحياء بما تحمل من تحية وتوديع وبقيت أنت، أنت الوحيد الذي ما زلت أراه، انك لتملأ على الرحاب والآفاق، واني لأحس بوجودك احساسا كله صدق ويقين، حقا ان الموت لأعجز عن أن يفرق بين حبيبين .. »

أعتقد أن « الرحلة والسفر » من أهم العوامل فى تكوين محمود تيمور الادبى فهو قد تردد على أوربا خلال ربع قرن مرات متعددة ، وتركت فى نفسه جبالاتها ومناظرها وجمالها آثارا لونت قصصه وآثاره .

• جلسة رخية تجاه بحيرة ليمان .. فى لوزان •

أتطلع الى هذا المشهد الحلاب الذى يتألق لعينى تحت أشعة الشمس وأرى القرى تتناثر على الشواطىء ممددة فى صعودها على سفوح الجبال ، تكتنفها غيرها فى وهج الظهيرة •

وهى فى ذلك الوهج غيرها فى فترة الاصيل •

وكأنما هى تخلق خلقا جديدا حين تنسدل استار الظلام أو تتكاثف أطباق الضباب » •

وفى الاقصر .. وفى نيويورك ، وفى باريس ، وفى لبنان تجد محمود تيمور متأهبا ليسجل خواطره .. يقول « لم أر منظرا بدعيا وقعت عليه عيناي الا وضعته فى مذكراتى وأنا نشوان به ، ولطالما جذبتنى زوجتى من يدى وقالت لى : « لقد جئنا للترويح عن النفس لا لكتابة المذكرات »

يقول محمود تيمور ان الشخصية التى أود أن أكونها وأن أعيش حياتها هى شخصية « أمين بك » الملقب بالملوك الشارد •

« حسبنا ان نتأمله هائما مزدحم الحياة يجالدها وتجالده وتدفع به أمواجها صاعدة هابطة ، وهو منتعش بذلك الذى أصابه دون سواه فى تلك النكبة العارمة التى لم تبق من زملائه ولم تذر • ولعل ماحبيه الى وأغرمنى به، هو تلك الصورة الفامضة التى اختتم بها حياته، صورة الفارس الجسور الذى كان له وحده دون زملائه المماليك جميعا حظ الافلات من منجل الموت الحاصد » •

واحب كتب محمود تيمور اليه هو « أبو الهول يطير » • فقد احسست اننى اكتبه بدمى ، وانا أودعه شعورى الصادق عن رحلتى الى أمريكا .. « أما القصة التى يجب أن يكتبها فهى قصة النيل بوصفه الها من آلهة الأساطير ، فان قصته خالدة شبت مع الزمن وستبقى الى الأبد •

ولا تعطينا آثار « محمود تيمور » شيئا واضحا عن حياته الوجدانية ، ولعل طبيعته المعتدلة الهادئة جاءت على نفس النسق فى العاطفة ايضا ، فلم يكن من ذوى المفامرات او الذين أحبوا حبا من ذلك النوع العنيف الحاد ولكنه يؤمن بأن المرأة ملهمة للأديب والكاتب •

« المرأة ملهمة الاديب والفنان في كل مكان فكيف يشذ الامر في مجتمعنا المصرى ، وان البسحت الدقيق فى حياة الادباء والفنانين ليكشف عن جوانب فيها للمرأة وحى وتأثير خاص أو عام ، والادب فى خصائصه وظواهره يختلف قبل خروج المرأة الى مجال حياتنا الاجتماعية ، عنه بعد خروج المرأة ومشاركتها فى الحياة العامة ، فقد اتسم الادب فى الماضى بالحرمان والكبت والتظاهر بالتحشم والتوقر ، اما الآن فيتسم بالحرية والصراحة والانطلاق ، فهو اليوم أدب سفور ، للمرأة فيه تأثير ايجابى وكان بالامس ادب حجاب ، للمرأة فيه تأثير سلبى ، ومن هذا يتضح ان الأدب متأثر بالمرأة على أية حال (١) » .

ويسير على نفس نهجه فى الاعتدال حينما يؤمن بالزواج ويرى انه ضريبة الحياة : « على الشباب أن يبادر الى الزواج متى كان فى استطاعته ان يتحمل تكاليف الاسرة ويضطلع بما لها من تبعات فتلك هى ضريبة الحياة وذلك هو الحجر الاساسى فى بناء المجتمع .. »

وهو يؤمن بان الزواج لا يحول دون المجد « وليس يحول الزواج دون المجد ، وربما اعان عليه » .

وهذا كله يعطينا صورة من رجل سوى الخلق ، سليم الراى فى الحياة الاجتماعية ، لم يعتزل الحياة الزوجية ، ولم يندمج فى التجارب العنيفة ، وبقى على اعتداله وبعده عن الاسراف .

بدأ محمود تيمور حياته بقراءة الف ليلة ، وجبران ، وعيسى ابن هشام وصدرت « زينب » أول باكورة قصصية مصرية فأعجب بها .. ثم اتجه الى موباسان وتشيفوف وتورجنيف ..

وهنا أنتج أول آثاره سنة ١٩٢٥ « الشيخ جمعه » و « يحفظ فى البوسنة » وفى خلال ربع قرن تحول اتجاه محمود تيمور القصصى وتنوع .

تحول من القصة القصيرة الى الطويلة ثم المسرحية ومن الواقعية الى التحليلية .

ويقول نقاده ان قصة « الاطلال كانت ثغرة بين مرحلة الواقعية ومرحلة السيكلوجية » (٢)

ولعل تيمور قد رسم فى قصة الاطلال صورة حياته فى مطلع شبابه

(١) فى حديث مع المؤلف : الصباح ٢٧ - ٣ ١٩٥٣ .

(٢) محمد أمين حسونة .

حينما تدفع الثورة الكامنة المتأججة الى الخروج من حالة القلق والحيرة الى عالم الجسم وجحيم الشهوة (١) .

ويقول تيمور انه يقرأ المقالة أو القصة أو الخبر في احدى المجلات فتكون نتيجة ذلك أن يخرج بموضوع جديد لقصة جديدة .

وهو لا يكف في سبيل فنه عن الاتصال بالمجتمع والتغلغل في أعماقه وقصة « عم متبولى » استوحى الكاتب موضوعها من مشهد لفت نظره أثناء جولاته في أحد الأحياء الشعبية لرجل يبيع اللب والفول السوداني . ويقول الدكتور طه حسين « ان محمود تيمور يصدر عن طبيعته دون تكلف ، فاذا لم تجد في قصصه هذا اللون أو ذاك ، فانما هو يستجيب لطبيعته الهادئة المتحرزة الوقور التي عاشت في كنف التقاليد ورعاية الأوضاع . وبعدت عن النزق والاندفاع في شبابها وراء المطامع والأهواء ، وهى اذا اتجهت نحو الحب أو الإعجاب بالجمال ، فانما تدخل هذا الباب مستأنية مترفقة متوقرة .. أو قل متحفظة » .

ومحمود تيمور في آثاره الأخيرة ، في فترة استكمال أدوات الفن ، وتبلور الصور والمعاني ، والوصول الى السن التي يعرف الكاتب فيها معالم طبيعته يتخذ منحى التحليل النفسى المستفيض للكشف عن البواعث الخفية التى تدفع الإبطال الى ما يقومون به من أعمال دون الوقوف عندما يبدو من الأسباب الظاهرة لهذه الأقوال التى تجرى على ألسنتهم أو التعليقات التى يتذرعون بها لتبرير ما يقومون به .

وبدا في قصصه « اليوم خم » و « حواء الخالدة » يلتهم الأجواء التاريخية دون أن يتخذ من مادتها أو أساطيرها دعائم قصصية .

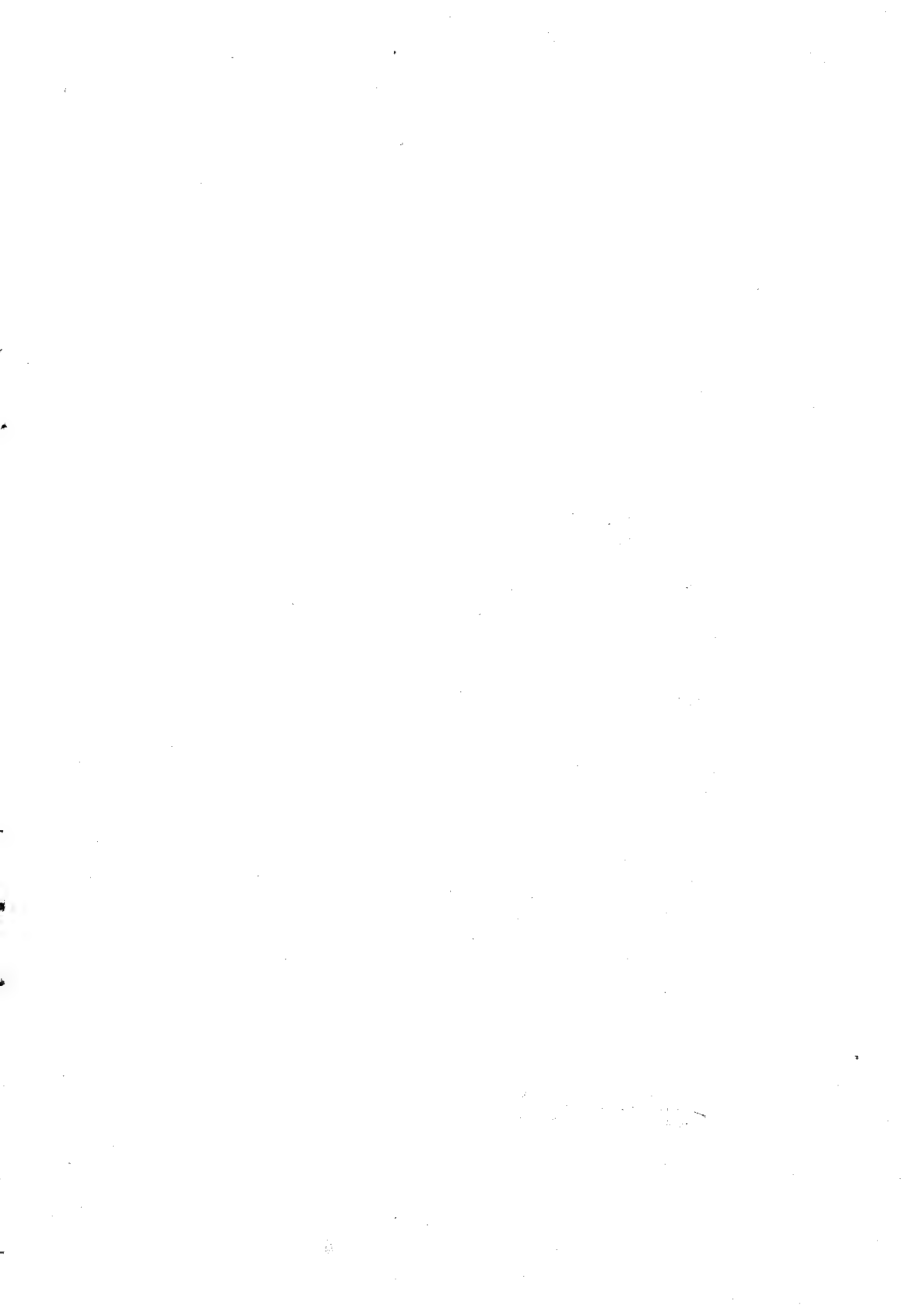
ومن التاريخ الإسلامى « ابن جلا » و « عنترة » وهو فيهما يستجلى مواطن هذه الشخصيات ويصور نفسياتها ويعلل تصرفاتها وينتزع منها نماذج انسانية حية بفرائنها الخالدة .

وهو يستجيب استجابة طبيعية لما يجرى حوله ، وقد ضمن مسرحياته ألوانا من هذه الاستجابة القوية ، وقد أوحى اليه العهد السياسى البائد في مصر مسرحية عنيفة هى « المزيفون » صور فيها الحالة العامة قبل الثورة الحاضرة .

وفي مسرحياته « كذب في كذب » ، « أشطر من إبليس » ، « قناصل » ، صور جوانب من المجتمع وحلل طبائع من الناس على وجه يدل على كفاية واضحة في فهم السرائر والشمائل .



احمد حسين الزيات



أخرجته المنصورة بلدة الشعر والجمال ، وتفتح شبابه على ضفاف النيل ، حيث تغدق الطبيعة في العطاء ، وتنثر العطر والندى في طريق الفن والشعر ، وكان في الأزهر أحد ثلاثة أقاموا مدرسة التمرد على القديم « طه حسين - الزيات - محمود زياتى » .

وخلف الأزهر غير نادم ، وتعلم الفرنسية ، وسافر الى فرنسا حيث درس القانون والآداب .

ومن جمال المنصورة وبلاغة الأزهر وثقافة الفرنسيين بزغ أدب الزيات ناعما هادئا .

وبدأ الزيات حياته مدرسا ١٩١٧ وقد طال اتصاله بالتعليم الى أن انشأ الرسالة سنة ١٩٣٢ وهو لم يتصل بالصحافة على غرار طه حسين والعقاد وغيرهما فلم يكن من طبعه هذا اللون من الصراع السياسى ، وإنما كان أدبيا تجرد للأدب والحب والجمال وقد ترجم في خلال هذه الفترة روفائيل وآلام فرتر ووضع كتاب تاريخ الأدب العربى .

وفي خلال فترة العشرين عاما ١٩٣٢ - ١٩٥٢ ، كانت « الرسالة » هى المجلة الادبية الاولى فى الشرق ، ولها أثرها البعيد فى تطور الأدب خلال هذه الفترة .

ابرز ما يأخذ بالبال ان « الزيات » رجل هادىء كالجدول الرقراق كلما اتصل قلبه بموضوع ، لاترى فيه الحماسة الفوارة ولا العصبية الهائجة ولا الجراءة ، لست أدري هل السر فى هذا أن الزيات بدأ كتاباته هذه التى نشرتها الرسالة وجمعت فى « وحى الرسالة » فى حوالى الاربعين ، وهى سن تعطى الكاتب التركيز والاعتدال والرسوخ ، ولست أدري لو أن الزيات كتب واتصل بالحياة وبأمور المجتمع قبل ذلك بعشر سنوات هل كان يبدو هادئا أو نائرا ؟

لكن الذى يمكن القطع به أن الزيات هادىء بالطبع ليس راكدا أو آسنا ، ذلك أنه فى سن الخمسين وبعدها قد تنساول السكثير من

الموضوعات فحملها الكثير من الحماسة النابضة بالحياة بالرغم من الهدوء
الواضح في مظهرها .

ولكن الزيات الى هذا كله لم يكن ناثرا ، ولم يكن من كتاب الأدب
الانقلابي كطه حسين مثلا ، ولم يكن عنيف النقد كالعقاد ، وهو الى هذا
الهدوء معتدل ، متزن مترفق على أسلوب المدرسة الفرنسية وعلى طريقة
الصالونات .

واذا قلت ان عاطفته متحركة فأنت لاتعدو الحقيقة . انه مفتون
بالجمال ، تمتزج في بيانه الروعة والجمال والحسن والفن ، انه هو الرجل
الذى خلق مدرسة جديدة في الأدب تعنى باللفظ المونق والعبارة العالية
وهو الذى جدد روح الادب العربى ، لقد بدأ حياته كما يبدأ أى شاعر
بالحب فترجم آلام فرتر ، ثم عندما بلغ سن الرجولة العاملة نقل الحب
من الذاتية الى الموضوعية يقول الزيات : «لماذا ترجمت فرتر ؟ فى ١٩١٩
كنت اجتاز هذا الحين شابا طريرا حصره الحياء والانقباض والدرس
ونمط التربية وطبيعة المجتمع فى دائرة ليس فيها من الواقع غير وجوده
واحساس مشبوب يتوقد بالجمال وقلب غريب يتحرق ظمأ الى الحب ،
فالتبيعة فى خيالى شعر ، وحركات الدهر نغم ، وقواعد الحياة فلسفة ،
وكان فهمى لكل شىء وحكمى على كل شخص يصدران عن منطق أفسده
الخيال وزور نتائجه المثل الاعلى ، ثم فجر هذه الحال التى وضفت هوى
دخيل هادى ولكنه ملح ، فسبحت منه فى فيض سماوى من النشوة
واللذة وأحسست أن وجودى الخالى قد امتلأ ، وقلبى الصادى قد ارتوى ،
وحبى الغائر قد سكن ، ورحلت أسلك هذا الطريق السحرى محمولا على
جناح الهوى حتى ذكرنى الزمن الغافل فأقام فيه عقبه ، اذ اصطدم الخيال
بالواقع والحبيب بالحاطب والعاطفة بالمنفعة » .

« فلما قرأت «آلام فرتر» سمعت نواحا غير ذلك النواح ورأيت روحا
غير هاتيك الأرواح وأحسست حالا غير تلك الحال . كنت اقرأ ولا أرى فى
الحادثة سواى وأشعر ولا أشعر الا بهوى وأندب ولا أندب الا بلوى » .

هذا هو « الزيات » فى شبابه حياة كلها حب وكلها عاطفة ، ولكن
هل هو الحب الاول ؟ ١٩٠٠ لقد رسم الزيات صورة الحب الاول فى احدى
قصصه :

« ذهبت منذ قريب الى القرية فى شأن من شئون الاسرة وفى فترة
من فترات الصمت العميق الحالم أرسل صديقى نظره الى مورد الماشية
من التربة ثم رده وعلى عينيه الساجية جميع معانى التعجب ، وعلى شفته

الباسمة كل أدوات الاستفهام فنظرت حيث نظر فاذا امرأة في أخريات الشباب توردد بقرتها الماء وقد أسدلت على وجهها الكامد طرحتها السوداء .

دع لي صورة الفتاة التي عرفتني واحببتها . انها لاتزال في طوايا القلب طاهرة كالطفولة ناضرة كالصبي ساحرة كالشبيبة أما هذه التي ترى فليس بيني وبينها عهد ولا سبب » .

هذه قصة نور ، قصة الحب الاول . وبعد ، فما تزال للزيات في ميدان الحب قصص :

« عرفت في باريس سنة ١٩٢٥ الأنسة «فرنانة» ابنة احد القضاة وكانت طالبة بالسنة الاخيرة في كلية الحقوق ، وكان لها بالمستشرق المرحوم كازانوف أستاذ الادب العربي في الكوليج دي فرانس صلة قرابة أو صداقة ، فعرفني اليها لتكون في مدينة النور ماكانت بياتريس لدانتي في جنة الفردوس » .

« أدينا الامتحان معا ثم أرسلت نفسي الحشيمة على هواها ومناها فزرتنا معابد الطبيعة في فنسين ، وسان كلو وفنتيلو ، وحججنا محاريب الفن في اللوفر والابورا وفرساي ، وكنت يومئذ أترجم «روفايل» فكان ما أقرأ وما أكتب وما أسمع وما أرى نسقا عجيبا من الجمال والجلال والفن والشعر والحب والتأمل والاستغراق ، لا يدع للخيال الثواب مسبحا ولا للنفس الطماحة رغبة ، ثم حم الفراق فرجعت الى مصر ولحقت هي بأهلها في رومان وكان بيني وبينها بعد عودتها رسائل مسكية المداد وردية الورق تؤلف كتابا من شعر القلب والعقل » .

وعاد الزيات الى مصر وسافر الى بغداد ، وعاد الى مصر فاستقر بها وأنشأ الرسالة ووصلته بالآلاف القراء والقارئات .

وكنا نحس بين حين وحين بخفقة قلب ، هنا أو هناك .

ولعل قصة ضخمة عنى الزيات بكتابتها في فصول سبعة كانت بعيدة الأثر في نفسه تلك هي « قصة فتاة » .

هذه الفتاة التي كانت تحب الزيات في عنف وقوة وتراسله من قرينتها فتكتب له على هذه الصورة من الهوى العنيف .

كيف كان موقف الزيات الرقيق القلب العاطفي الوجدان من فتاة محرومة تضع آمال عاطفتها في الكاتب الرقيق .

ان منطق القصة يعطى صورة الزيات وهو يهتز عاطفة ويحاول أن يوازن بين العاطفة والعقل وبين قلبه ورسالته وبين أن يكون حبيباً وأن يكون أباً أو ناصحاً هادياً .

انها ولا شك عاطفة هزت الكاتب من الاعماق ، والا فلماذا أولاهها هذا الاهتمام ورسم لها هذه الصورة القوية الجبارة .

وثمة صور أخرى من صور العاطفة فى حياة الكاتب الوجدانى الرقيق « تذكرت أن شهر يناير قد عودنى الجميل فيما مضى من عمرى فقد سجل أكثر ضحكات القلب وحسبى منها ميلاد ولدى رجاء والرسالة »

« ألقى الى البريد الجوى فى صباح هذا اليوم غلافا من العراق ورقه طابع الذوق وعلى خطه سمة الظرف ، فلما فضضته وجدت فيه رسالة وصورة . . قرأت الرسالة والامضاء ثم تأملت الصورة والاهداء فاذا هما آنسة من أوانس بغداد المثقفات وقد أولعت بالادب وأغرمت بأهله ، ثم عدت أقرأ وعدت أتأمل وطال تردد البصر والفؤاد بين الصورة وهى رسالة الجسم الجميل وبين الرسالة وهى صورة الروح النبيل حتى غاب حسى فى سكرة من سكرات الاحلام ، ولم أكد أستوعب الرسالة بفكرى وأناقش موضوعها حتى تناولت القلم وفتحت الالبوم وأجبت على رسالة برسالة ورددت على الصورة بصورة ، ولكن هيهات وأسفاه ، لن تجيب رسالة عقل على رسالة قلب ، ولن ترد صورة قبيحة على صورة مليحة » .

والاستاذ الزيات ما زال على ارتفاع السن شاب القلب ، وهو يصور السعادة بهذه الصورة الحلوة الرائعة . . « وما أيسر السعادة على ابن آدم لو يدرى أو يريد ، ان كلمة من قلب مفتوح ، أو بسمه من شفاه بريئة ، أو نظرة من عين حبيبة ، أو فقرة من رسالة شاعرة ، أو قسمة من صورة فاتنة ، لتستطيع أن تثير ما أظلم من قلبه وأن تفرج ما اشتد من كربه ، ان السعادة فئات وفترات فلا تكون فى واحد صحيح ولا تدون فى زمن متصل . . »

وهو يصور الحب فى صورة موضوعية تدل على طول الخبرة وسعة الفهم وعمق التجربة .

« العلة الغائية لخلق المرأة هى أن تكون زوجة وأما ، وسبيلها أن تروق الرجل وتدمت أخلاقه وترقق طبعه ليسكن اليها » .

» . . . للحب خصيصتان قويتان : الرغبة والحشمة ، ومن ذلك كان جمال المرأة داعى الرغبة خافض الجناح حى الطبع ، والرجل مزهو

على المرأة يدل بحيازته لها ويتعزز بقيامه عليها ، فهو يريد لها ربحانة لا قهرمانة ، وحبشية لا جليبية ، لها سلطان ولكنه رفيق ، وفيها ابناء ولكنه رقيق ، ومن ثم كان جمالها مزيجا من الوداعة والعزة ، وخطا من الضعف والدلال وطبعا من الهيبة والنبيل ، وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره ما دامت له روح من العاطفة تشع من نظراتها ، وتشيع في قسماتها ، وتنتشر أضواءها السحرية على أعصاب الرجل ، وهو بطبعه ولوع ، فيمتع بنعمة اختياره ولذة ايثاره .

وسلطان المرأة القوى على قلب الرجل انما يأتيها من ذلك الذكاء المستتر ترعاه معه وفيه على غير علمه ، فكان من مزايا جمالها أيضا أن تلوح هذه البصيرة الدقيقة على أسرة وجهها وتشرق على الأخص في تلك الفطرة الوديعا التي تغفل في طوايا القلب فتتسخ ظلال الفتور ، وتبدد ظلام الكآبة وتشعل خمود الحب . . . »

وهو المحب الذى يهتف عندما يتنازل دوق وندسور عن ملك بريطانيا فيقول : « . . يا كافرين بالشعر والاحلام والحب » .

واذا تحدث عن الربيع كانت المرأة معقد حديثه . « أجل شيء فى ربيع القاهرة أصائله وأماسيه ، ففى هذين الوقتين تزدهر شوارع القاهرة الحديثة بزهرات شتى الألوان من بنات الانسان فتملأ الجو عطرا ، والعيون سحرا والقلوب فتنة . »

واذا تحدث عن العيد ، أرجع السر فى أن حياتنا الاجتماعية ممسوخة وأعيادنا مشوهة ، الى غيبة المرأة عن المجتمع الاسلامى ، « ذلك السبب هو على ما نكابده من جفاء فى الطبع وجفاف فى العيش ، وجهومة فى البيت وسامة فى العمل وفوضى فى الاجتماع . »

. . كرهنا الدور لاحتجاب المرأة ، وهجرنا الأندية لغياب المرأة ، وسئمنا الملاهى لبعد المرأة ، فاذا لم تصبح المرأة فى البهو عطر المجلس وعلى الطعام زهر المائدة ، وفى الندى روح الحديث ، وفى الحقل مجمع الأفتدة ، فهيات أن يكون لنا عيد صحيح ، ومجتمع مهذب ، وحياة طيبة وأسرة سعيدة . . . »

ومما يتصل بهذا ما يرويه من أنه قرأ كل قصص الحب العالمية هلويز الجديدة وربييه ، وأتالا ، وأدولف ، ودومنيك ، وماريون دولوم ، ومانون ليسكو ، وغادة الكاميليا ، وجرازيلا ، وروفاثيل ، وجان دكريف فاذا أضيف الى هذا فضوله عن شاطئ البحر ، وجهه للقرية

وأحاديثه عن ذكرياتها في أيام الفيضان والعيد ورمضان ، وفصوله عن
الاقصر وخواطر مهاجر ، أمكنك أن ترسم الصورة الكاملة لهذا الكاتب
الذى تمرد باكرا على العمامة والأزهر وأسلوب الجمود فى الدرس
والأدب ، واتجه الى اللباس الافرنيجى والجامعة واللغة الفرنسية والأدب
الغربى وباريس .

ومما يتصل بالحياة العاطفية للأستاذ الزيات • فقدان ابنه « رجا »
» ••• كنت فى طريق الحياة كالشارد الهيمان ، أنشد الراحة ولا
أجد الظل وأقبض المجد ولا أجد الحبيب ، وألبس الناس ولا أجد الأنس ،
وأكسب المال ولا أجد السعادة ، وأعالج العيش ولا أدرك الغاية ، كنت
كالصوت الأصم لا يرجعه صدى ، والروح الحائر لا يقره هدى ، والمغنى
المبهم لا يحده خاطر ، فلما جاء رجا وجدتنى أولد فيه من جديد ، فأنا
أنظر الى الدنيا بعين الخيال ، وأبسم الى الوجود بثغر الاطفال • وأضطرب
فى الحياة اضطراب الحى الكامل يدفعه من ورائه طمع ويجذبه من أمامه
طموح ، شعرت بالدم الحار يتدفق نشيطا فى جسمى ، وبالأمل القوى
ينبعث جديدا فى نفسى ، وبالمرح الفتى يضج لاهيا فى حياتى ، وبالعيش
الكثيب يتراقص على حواشيه الخضر عرائس المنى ••

•• ثم انقضت تلك السنون الاربع فصوحت الواحه ، وأوحش
القفر وانطفأت الومضة وأغطش الليل وتبدد الحلم وتجهم الواقع ، وأخفق
الطب ومات رجا ••

ثم لا يلبث أن يتحدث عن ابنه رجا وكتابه العراق ••

» •• والهفتاه على ولدى الذى أبدعه الله ، وعلى أخيه الذى أبدعته •
جاءا معا فى الشتاء فلم أجد بفضل وجودهما بردا ولا عبوسة ولا كآبة •
وذهبا معا فى الربيع فلم أحس بسبب فقدها دفئا ، ولا طلاقه ولا بهجة •
» أودى بهما القدر العايب خداعا وغيلة ، فسلب العين رية الحذر
وجرد الدفاع اليقظ من فرصة الحيلة ، دب للطفل الموت فى وعكة خفيفة
من البرد ظننها الطبيب زكاما عارضا ، فاذا هى الخناق القاتل ، ومشى
للكتاب القدر المحتوم فى ركاب من الورق المتروك فذهب به خلصة الى
النار المبيدة •• »

ويتصل بالعاطفة فى الزيات عاطفة أخرى هى عاطفة العروبة والشرق
والاسلام فهو الذى جاهد بقلمه فى سبيل تحرير الشعوب العربية ودافع
عنها فى كل مناسبة واحتضن الدعوة الى اصلاح الأزهر •• ولم تمنعه

سعة أفقه وهو مؤلف « عبقرية الاسلام » أن يرثي « اسماعيل أدهم أحمد »
.. عندما انتحر في أغسطس ١٩٤٠ . ولما أراد أن يصف خلته وانحرافه
داوره بلباقة : « لقد حسب أن أرقام العلم وأقيسة المنطق هي كل شيء
في تقدير المعلوم واكتناه المجهول باعتماده في أدبه على العقل القعيد، الذي
يرى ولا يظير ، واتكأ في الفلسفة على الغرض البعيد الذي يطير ولا يرى » .

ويمكن القول أن اتصال الزيات بالأدب الفرنسي لم يسمح شخصيته
ولم يدفعه الى الانحراف ، وانما يظهر اعتداله في أنه يحتفل بعيد الهجرة
والميلاد سواء ..

وبالرغم من أن الزيات شاعر في أسلوبه الأخاذ ، فانه منصف
لا يميل مع الهوى ولا يقول كلمة السوء ولا العبارة النابية ، فاذا أراد أن
يقول شيئا فيه ما يغضب دار ولف ، وحاور وداور ، حتى يقول ما يريد
في صيغة لا تجرح ولا تسيل الدماء . وهو يصور طبيعته في قوله « ...
لست بطبيعتي وتربيتي رجل صالون .. »

وصداقة طه والزيات من الصداقات الادبية الممدودة في تاريخ الأدب
العربي ، يروي الزيات كيف عقدت مي مجلسا للصلح بينه وبين طه حسين
في فترة أصيبت فيها الاخوة المصقولة ببعض الفتور .

« .. ثم (١) مسحت مي بيدها الساحرة على ما كان بين الصديقين
فاذا الماضي يعود كله ، واذا الحاضر يذهب كله ، وعلاقة هذين الصديقين
علاقة نشأت مع الصبا واستمرت مع الشباب ، وتوثقت مع الزمن فلما
نال منها العهد المجرم الذي نال من كل شيء جزعت الأنسة الكريمة فيمن
جزع وظلت تتحيز المناسبة لسفارة الوفاق والمودة حتى تم لها ذلك ليلة
الأمس . كان حب صديقي وحبي لحظة من الذكرى تعيسد غارب الحكم
وتكسر عادية الجدل .. »

ويصف الدكتور زكي مبارك أدب الزيات بأنه صورة من نفس رجل
ممتحن بنفسه وبالدنيا وبالناس، فأدبه الذي ينشره اليوم قد يكون صدى
لتجاربه منذ أكثر من ثلاثين سنة ، والكاتب لا يعرف أين هو من حاضره
وماضيه لأنه مشدود الى قافلة الوجود ..

وبعد فالزيات له أسلوبه الواضح الذى يفصح عن نفسه ، وهو أحد
أبناء المدرسة الازدواجية التى ابتدعها الجاحظ، وسار بمنهجها المنفلوطى
والرافعى والمازنى وطه حسين على أساليب متفرقة وطرائق متباعدة .

ولقد حرص الزيات على قلمه ، نقياً فلم يدفعه فى حمأة السياسة
ولم ينزل به الى مستوى الصراع أو الخصومة ، ومضى وفيما لطبعه وفنه ،
يكتب فى أناة وينتج فى ترفق واعتدال .



توفيق الحكيم

سئل توفيق الحكيم اذا كان قد وصل الى ما كان يريد فقال : « ربما ظفرت ببعض ماكنت أريد أو بكثير منه ، ولكن : هل ماكنت أريد هو ما كان يجب أن أريد ؟ اننا نحدد مطالبنا عادة عندما نكون فى مطلع الحياة ، أى فى مرحلة الشباب ، فمن يضمن لنا أننا فى هذه المرحلة كانت لنا الحكمة الكافية والتجربة الضرورية للارادة الصحيحة ؟ »

ويبدو توفيق الحكيم صادقا فى تصوير نفسه بعد أن ارتفعت به السن ، وقد بلغ الآن الخامسة والخمسين : « أظن اننى أحب نفسى الآن أكثر مما كنت أحبها أيام الشباب ، لأن القلب يصغر كلما كبرنا الى أن يأتى الوقت الذى لا يتسع فيه لغير أنايتنا والعياذ بالله . »

وقرأت له تصويره للسيدة زينب فخيّل الى أنه انما يقصد نفسه اذ يقول « ٠٠ ما من مرة وقع فى شدة الا وجد العزاء عند ضريح السيدة زينب ذى القضبان الذهبية ، كل نجاح ظفر به فى الحياة هو دفعة من يدها ، وكل عطف هو نظرة من عينيها ، وكل ابتسامة انما هى ابتسامة من شفتيها ، انه يتخيّل هيئتها ووجهها وملاحتها ويعتقد انها فى السماء بردائها الابيض انما تنظر اليه دائما وترعاه . »

ولما ذهب الى سالزبورج فى العام الماضى - ١٩٥٣ - أخذ يصور قمة المجد التى وصل اليها « وفى سالزبورج رأيت الحيطان تحمل اعلانات حمراء كبيرة تحمل اسم « بجماليون » واسمى وأسماء الممثلين النمساويين وفى تلك اللحظة يرجع بى الزمن القهقري ثلاثين عاما يوم أبصرت لأول مرة اسمى واسم رواية لى أخرجتها فرقة عكاشة على مسرح الازبكية ، يا لها من رحلة بين لحظتين ، كم أنفق فى هذه الرحلة من جهد وعمل ويأس وأمل وكفاح فنى . . ولكن . .

لقد كان قلبى يرقص فى اللحظة الأولى أما لحظة اليوم فان القلب هادىء متشد يبتسم ولا يفرح . ما الذى حدث له . .

عرفت أشياء كثيرة ولكنى لم أعد أعرف الفرح الفارح الراقص الذى يجمل من الفنان طفلا ، واذا فقد الفنان طفولته فقد نضارته . لا أظن أنه

قد كتب على كل فنان هذا المصير ، أن تجعل منه الايام دوحة قد تظل ولكن ليس يجرى في قلبها عصير .. »

وعندما تحدث عن الحب قال : « ان الحب كمرض الحصبة يصيب الصغار ويندر أن يصاب به من جاوز الثلاثين ويمكن مد المدة الى الاربعين ان هذا الكائن المنقرض ، يخيل الى أننى رأيته فيما مضى ، ولكن لماذا يتخذ الحب هذه الاهمية فى حياة الناس ؟ انهم يريدون أن يقرءوا عنه فى الكتب ويسمعه فى الاغانى ويشاهدوه فى القصص ، والويل للروائي أو الشاعر أو السينمائي الذى يهمله . انى أحب بقلبي الذى فى رأسى وبقلبي الذى بين جوانحي .. »

هذه ملامح شخصية توفيق الحكيم اليوم .. فى الحلقة السادسة من عمره .. بعد أن بلغ من الشهرة مداها وتحول من الفن الخالص الى الصحافة الى الأدب الذى يرضى القراء .. الى أن أصبح هذه الشخصية الجديدة .. انه ظفر ببعض ما كان يريد وهو يحب نفسه الآن أكثر مما كان يحبها أيام الشباب ، والسيدة زينب هى متجاه فى الشدة واليها يرجع كل نجاح له فى الحياة .. ومهما وصل الى المجد فان القلب هادئ متند يبتسم ولا يفرح أما الحب فهو كمرض الحصبة يصيب الصغار ، وهو يحب بقلبه الذى فى رأسه وعقله الذى بين جوانحه .

حقا ما أبعد الفرق بين الشباب وبين ارتفاع السن .. فى الافكار والآراء .. ان كل شئ يتحول وينتقل من وضع الى وضع . وبعد فما هى حياة توفيق الحكيم فى أدبه ؟

وهل المصادفة البحتة هى التى قدمته الى الناس ، عندما طبع أصدقاؤه مائة نسخة من قصة « أهل الكهف » سنة ١٩٣٣ فاستقبلها الدكتور طه حسين استقبالا ضخما فخما ، وصفق لمؤلفها ووصفها بأنها أول محاولة لابتداع الحوار فى الأدب العربى ؟ .

ان كل الأسانيد التى أمامى تدل على غير ذلك ، تدل على أن «توفيق الحكيم» ولد كاتباً ، وانه بدأ محاولاته مبكراً .. ثم اختفى وذهب الى باريس وعاد وهو يحمل الآمال العريضة فى الظهور والتبريز .

« ... لقد طرح فى مصر مهنة المحاماة والقانون ليمضى فى حمل القلم ، ويقول للناس أشياء يعتقد أنها قد تنفعهم .. وما كان يريد غير ذلك ، ولا يطمح فى حياته فى غير ذلك ، فلا الجاه العريض كان يغريه

ولا مفاتيح الحياة كانت تستهويه ، ولا الشراء كان يجذبه أو يقنعه أو يرضيه . . وعندما يضع انسان لحياته خطة ، فان القدر أحيانا يأخذ وينفذ (١) » -

وهذا يعنى أن الرجل كان يفهم نفسه ويرسم طريقه ، بل ان توفيق الحكيم يؤكد « أن أكثر الكتاب يعيشون حياتهم أولا ثم يكتبونها بعد ذلك ، أما أنا فأكتب حياتي أولا ثم أعيشها بعد ذلك ، يا له من شيء خفيف » -

. . اذن فتوفيق الحكيم ان كلاك قد ملع في الجو الأدبي في ذلك التاريخ وبذلك الكتاب فانه لم يكن أول محاولاته . وانما هو رجل عاش في برجه العاجي هذا الوقت الطويل ، يقرأ ويراجع في أناة وهدوء .

« . . كان ميبدأ ظهوري في الجو الادبي نشر أهل الكهف عام ١٩٣٣ ولم تكن هذه الرواية بالطبع بدايتي الأولى في هذا اللون من التأليف بل كانت ثمرة تجارب عشرة أعوام أو تزيد سابقة على الشروع في وضعها ، فلقد كنت قبل ذلك أكتب للمسرح المصري وروايات تتلاءم وجمهور تلك الايام .

وانني وان كنت أؤثر نسيان الروايات الاولى ، الا أنني لا يجب أن أنكر فضلها على تكويني الفني الاولى فلقد كانت هي خير محاولاتي على ممارسة الحوار ثم اتسعت آفاقي باتساع نطاق مطالعاتي في أصول هذا الفن في الآداب الاجنبية . -

وضاقت بي مصر فرحلت الى فرنسا بعد أن كنت سجلت اسمي في جدول المحامين ومهدت أمري لحياة مجددة ، ولكن أي شيطان في أعماق نفسي كان يدفعني الى اضاعة حياتي وراء فن لم يكن له بمصر أي احترام . . . وهناك في فرنسا قرأت كثيرا وكتبت بالفرنسية نحو أربع روايات تمثيلية مزقت الواحدة منها تلو الاخرى تمزيقا عقب الفراغ منها فلم أكن قد اهتمت الى شيء يذكر .

ولبثت في هذا الجهاد زمنا لا أجد في آدابنا العربية مرجعا لهذا الفن ولا مصدرا محترما يجعلني أبدأ منه أو أضيف اليه انما كان على أن أخلق البداية خلقا وكتبت بعد ذلك عدة روايات من بينها «أهل الكهف» .

وقد اشتغلت بالقضاء فأنساني هذه الخزعات ودفنت محفوظاتي في حقائب طويلا أنتقل من بلد الى بلد ومن قرية الى قرية .

حتى وقعت مخطوطة أهل الكهف فى يد قاضٍ مثقف من زملائى كان
يذكر أيامى الماضى فى مسارح القاهرة (١) .

هكذا ظهر توفيق الحكيم فجأة ولكنه كان قد استعد لذلك سنوات
ولذلك سرعان ما قدم للأدب العربى المعاصر عددا ضخما من المؤلفات فى
سنوات قلائل .

اتصل « توفيق الحكيم » منذ شبابه ببيئة الفن ، ولم يتخلص منها
بعد ذلك ، حتى فى هذه الفترة التى قضاها فى القضاء والنيابة ، كان
مرتبطا بالفن بأكثر من سبب .

ومنحته باريس « بيئة الفن » سرها وروحها ... أعطته باريس آيات
الفنون والآداب « التى تملك عليه أمره كله فلا يرى غيرها » فان المعرفة
غير المباشرة من كتب ومحاضرات ومتاحف لم تلبث أن طقت فى نفسه على
المعرفة المباشرة .

كان يفضل البقاء فى باريس مكبا على القراءة والتحصيل على أنه
يصاحب اخوانه المصريين الى شاطئ بحر أو قمة جبل .

ولكنه كان يحس فى باريس بأن أيامه لا مذاق لها « ... فهى كاللذات
الحراق أجرحه على غير ظمأ ، المستقبل أمامى محاط بالضباب ، يخيل الى
أنى هويت قبل الألوان كالثمرة التى تسقط من الفرع قبل النضوج ... »
وفى باريس عمد الى تحصيل الثقافة من منابعها الحققة وبدأ محاولة
فى سبيل الخلق الفنى .

« والحوار » هو موهبة توفيق الحكيم الأولى ... فيه تتجلى ملكته
الاساسية وأسلوبه المركز ، أشبه بالبناء الدقيق .

وهو قليل التغير والتقلب فى الآراء والاتجاهات (٢) . يؤمن بأن حياة
الكاتب متصلة بحياة انتاجه « ... وأن فى أعماق كل « خلاق » شبه
غريزة داخلية تدفعه الى الانتاج البطيء أو السريع تبعا لطول حياته أو
قصرها (٣) » .

ويصف أسلوب تفكيره بأنه هندسى « ... صدقت يا أندريه فى

(١) الرسالة : توفيق الحكيم ٩ يونية ١٩٤٢ .

(٢) مجلة الاثنين - توفيق الحكيم .

(٣) البرج العاجى .

هولك أنى أصلح أن أكون رياضيا . وأن أخطارى وتصرفاتى تكاد تسير على طريقة هندسية أو حسابية أو جبرية (١) . »

.. وهو من الأناة بحيث يجب أن تمر فترة على آرائه ، « تتيح لى أن أراجع أفكارى القديمة بعين جديدة لأرى مدى استحقاقها للمضى فى الحياة معى ، انها هى التى ينبغى لها أن ترغمنى على تحمل تبعه بقائها ، شهى وحدها التى تملك بيدها أمر حياتها » .

وقراءات توفيق الحكيم متنوعة .. « ولعل أمتع الكتب التى قرأتها كانت من الكتب التى تبحث فى فلسفة العلم . وأنا ممن يميلون الى القراءة ببطء كبير ، وقد أقرأ صفحة واحدة من كتاب ثم أقضى ساعة فى تأمل ما قرأت والتفكير فيه ، وقد لا أقرأ فى الشهر أكثر من كتاب واحد لهذا السبب ، وأقرب الكتب الى نفسى هى كتب التأمل والفلسفة العميقة، وأنا لا أقرأ منها الا القصص العالمية الممتازة دون غيرها ولست ممن يحتاجون الى مكان خاص أقرأ فيه ، فقد أقرأ وأنا سائر فى الطريق أو جالس فى المقهى أو عندما أرقد فى سريرى لأنام (٢) » .

ويتصل انتاج « توفيق الحكيم » بنفسيته وشخصيته ، مهما بعدت مظاهره ، ويدور حول نفسه فى كل ما يكتب ، ويعيش حياة أبطاله فهو الشخصية الاولى فى كل قصة كتبها وهو البطل الفعلى لكل مسرحياته ، يبدو الابتكار واضحا فى انتاجه . « الساقون الثلاثة » و « شهر زاد » .. الملك والوزير والعبد الأسود .. كل منهم يحب شهر زاد على صورة تختلف عن حب الآخر : حب الغريزة ، وحب الحضارة ، وحب الخبرة .. وشهر زاد تحب هؤلاء جميعا ، ولكن : هل حقا أن أدب توفيق الحكيم غير عميق الجذور وان ذلك يرجع الى أنه قليل الخبرة لم يتصل بالمجتمع وعاش غنى برجه العاجى ، ولم ينغمس فى الحياة ولم يتمرس بأهوائه وآلامه ؟ .

قالوا ان نشأته تختلف عن نشأة طه وزكى والعقاد ، هؤلاء الذين اتصلوا بالبيئات المختلفة ، وعرفوا الفقر وكابدوه ، وشربوا كئوس العلقم ، وكدوا وذاقوا قسوة الايام ، أما هو : فقد ولد وفى فمه ملعقة من ذهب . وذهب الى باريس ... ولم يغامر مغامرة واحدة .. ولم يلبث أن اتخذ مقامه فى البرج العاجى .

(١) زهرة العمر :

(٢) المصور ٢٤ فبراير ١٩٤٤ .

« ٠٠٠ وهكذا أعبر الوجود الأرضي نهاري في برج عاجي ، وليلي
تحت مصباح أخضر ٠٠ »

الحق أن توفيق الحكيم قد مارس الحياة على صورة غير الصورة التي
مارسها بها العقاد وزكي وطه ٠٠ وأنه قد اتصل بها في يفاعته الباكرة
في صورة العاشق ، وفي شبابه في صورة المسافر ، وفي رجولته في
صورة المحقق ٠٠ ثم جاءت تجربة « الرباط المقدس » .

٠٠ هذه التجربة التي لاشك في أنها واقعية ، لبروز عناصر الصدق
والقوة والواقعية فيها ٠٠ فأكملت شخصية الفنان وأعطته سمته ومظهره .

« لم (١) تكن حياته كلها غارقة في النظريات أو التحرير والتحرير،
ولكنه غرق زمنا في الحياة من حيث هي حياة بواقعها وحلولها ومرهق
وطيبتها وخبثها ، ومن ذلك يوم كان يعمل في القضاء ويجوس خلال الريف
والمدن ويتصل بالحاكمين والمحكومين ويطلع على خبايا المجتمع وخفايا
الصدور والأسر والأكواخ والقصور ٠٠ »

واستطاع توفيق الحكيم أن يعطي لنفسه صورة تختلف عن صور
الكتاب والأدباء ٠٠ انه راهب الفكر ، التائه في بيداء الحياة ، المعتزل
للناس في برجه العاجي وتحت مصباحه الأخضر .

« حياتي الليلية ، حياة رجة مضيئة فاخرة بشتي الألوان ، ميدانها
لا في المراقص وحانات الليل ، بل في حجرتي المنزوية ، ومقعدى الواسع
قرب خزانة كتبى ، حياة الليل عندي هي حياة النفس في اتصالها النبيل
بما أقرأ في ساعات السكون ، وفي اصغائها الطويل الى الحواطر والأفكار
التي تغمر عالمي الصامت (٢) » .

وقد رسم صورة واضحة ٠٠ لهذه الحياة الغامضة ، المليئة بالوحدة
فقد أراد أن يجرب الحياة المستقرة ، غير أنه فشل في تجربته ٠٠ « ورجعت
الى وخذتى ٠٠ تلك الوحدة الباردة التي تحيط بى من كل جانب ، فما
أنا في الحقيقة دائما سوى كوخ مقفر وسط صحراء من الجليد وضعت
بداخله يد المصادفة اناء يغلى ويتصاعد منه بخار ، هو تلك الافكار التي
تخرج من نافذتى الى حيث تصل أحيانا الى جموع الناس ، فاذا دخلت

(١) فن الادب .

(٢) تحت المصباح الأخضر .

المرأة هذا الكوخ فمن يضمن لي ما سوف تلقىه في هذا الاناء وما يتصاعد من جوفه بعد ذلك .

... وهكذا أنفقت حياتي متنقلا تائها ليس لي مكان معروف ولا عنوان دائم فما تركت فندقا لم أنزله ولا نزلا لم أهبطه حتى ضجرت ذات يوم وتبرمت بهذه الحال واستنكفت أن أعيش هكذا كما تعيش الفكرة الهائمة والروح الحائر .. فأردت أن أجرب الحياة المستقرة في مسكن ثابت اخترته في بقعة جميلة من بقاع القاهرة ، يشرف على النيل ، وترى من نوافذه القلعة والاهرام وعينيت بأثاثه وأعددت فيه مكتبا أنيقا وخزانة للكتب واقتنيت سيارة ، وأقمت بمفردي وحولي خادم وطاه وسائق ..

فماذا حدث ؟ لم أتحمل الحياة فيه عاما فقد كاد الخدم الثلاثة يذهبون البقية الباقية من عقلي ..

أما السائق فلا يريد أن يصفى الى رجائي كلما طلبت اليه ألا يسرع فأنا أبغض السرعة ، انها تمنعني من التفكير ولطالما أكدت له أنى لست متعجلا شيئا ولا شيء فى الوجود يستعجلنى فأنا عدو الزمن والوقت، ولم أحمل ساعة قط فالوقت عندي ليس من ذهب بل من تراب .

.. وانطلقت بمفردي حرا من جديد . أتيتل فى الفنادق وأطوف بالشوارع وأقفز الى عربات الترام وسيارات التوبيس ، وأختلط بالناس وأمتزج بالجماهير فأحسست كأن الدم يعود حارا الى عروقي ، وان قدمي قد فرحتا بلمس الارض من جديد ، وأن فكرى قد عاد الى انطلاقه ونشاطه مع السير الحر بالاقدام فى كل مكان ، وملاحظة الناس فى الطرقات قد أخصبت ذهني الذى حبس طويلا خلف الزجاج ، وجعلت أقف على بائع الاذرة وهو يشوى كيزانه على عربته الصغيرة ، فأحادثه وأبأسطه لا يتعجلنى سائق ولا تنتظرني سيارة وأصغى الى حديثه الطويل فى ذلك الليل مع كناس الجهة فاشترك معهما فى السمر والحديث ، ورأيت الكناس يسامر البائع طمعا فى كوز والبائع لاه عنه لا تخطر له العزومة على بال ، فان الشغل شغل فى عرف التجار فاشتريت أنا كوزين أعطيت الكناس واحدا واستيقظت لنفسى الآخر فدعا الى الكناس الدعوات الصادقات وجعل يأكل ويقص على مما عنده من أحاديثه العامة البريئة اللذيذة .

.. من هذه الصورة « ترى توفيق الحكيم فى اهاب «راهب الفكر» كما شاء هو أن يرسم هذه الصورة .

وبالرغم من أن توفيق الحكيم فرنسى الأسلوب، فإن ثقافته متنوعة بين الانجليزية والفرنسية .

• وهو يحب الجو الغربى ، المطر والسحاب ، والوطن الروحي .

ويؤمن ببارستقراطية الثقافة ولا يحب الترخيص « .. وإذا الاديب

قائم فى المجتمع بين طبقتين ، كل منهما تجذبه يعنف ، الاولى تقول أنت للجميع لا لطبقة خاصة والثانية تقول له الزم مكانك بيننا نحن الخاصة والا هبطت الى الحضيض » .

• وأدب توفيق الحكيم صورة لنفسه ، فما موقفه من المرأة والحب .
لقد أطلق عليه لقب « عدو المرأة » فهل تحول عن رأيه فى المرأة كما تحول
عن بعض آرائه الأخرى « لقد تغيرت كثيرا وتنازلت عن أغلب أفكارى
وأمالى لقد أرغمتنى الحياة على المصانعة فى أمور كثيرة (١) » .

لقد أحب « توفيق الحكيم » فى فجر شبابه .. هذه الفتاة التى
روى قصتها فى عودة الروح .. الفتاة التى كان يحبها الشبان الثلاثة .
هذه العاطفة التى رسمت طريقه .. ووجهته الى قرص الشعر ،
ولكن « الفتاة الاولى » .. تركت فى أعماقه آثارا ظهرت فيما بعد واضحة
حين صور رأيه فى المرأة والحب .

لقد سخرت الفتاة منه ومن أصحاب كانوا يتقربون اليها وكانت
هى تسخر منهم .. وتلهو بهم .. وتعيث بقلوبهم .. فلما صادفها شاب آخر
من جيرانها أكثر وسامة وغنى .. بذلت له حبها .

هذه « العقدة » كانت أول ما صدمه فى حياته العاطفية فتركت
أثرها القوى باقيا .

فاذا تحدث بعد ذلك عن المرأة بدا رأيه مظلما متشائما .. عبوسا
« .. لو (٢) خير ، لا أريد جنة أو نارا من صنع المرأة ، انى أحرص كل

(١) زهرة العمر .

(٢) مجلتى .

لأحرص على أن أكون سيد نفسي وأن أصنع لنفسي نعيما وجحيما لاتعرفهما المرأة ، ان جنتي بالطبع لن تجد فيها حية ولا تفاحا ، فهي جنة هادئة متواضعة ، جنة الفكر والتأمل والخلق والابداع ، اذا دخلتها المرأة حلت فيها الفوضى وانفرطت عقود درها المنظوم وتحطمت تماثيلها المرمية ، كما أن جحيمي مملوء بعذاب الشك والقلق الفكري ، وعذاب القصور عن إدراك الكمال الفني ، آلام لا تفهمها المرأة كذلك ولا يمكن أن تعترف بها ، فأنت ترى أن نفسي « منطقة مقدسة » لا أسمح لامرأة بالدنو منها ، ولقد ازدددت مع الزمن شدة في ذلك حتى رأيت أن أقصى المرأة نهائيا عن الشطر الباقى فى حياتى .

انى أعيش مع شبح امرأة دائما ، ولكن أى امرأة ، ان تلك التى سمحت لها بدخول جنتى ، هى امرأة لا كالنساء ، فانها النور بغير مصباح ، وهى قطرات الندوة بغير خمر ، هى عروس لها جسم المرأة ، وكل شىء جميل فى المرأة متدثر فى رداء من خيالى ومن كل ما هو جميل من نفسى ، فقد أسبغته عليها هى ملكة جنتى التى توحى الى بخير ما أخرج وأصنع ، فالمرأة التى لها شأن فى حياتى هى كما ترى من صنع يدي وخلق تصويري وانى أعتقد أن أغلب من ذكرت من الكتاب والفنانين والرجال العظام ما دفعتهم الى العمل المنتج الا نساء من صنع أنفسهم » .

ولكن هل استطاع توفيق الحكيم أن يقصى المرأة نهائيا عن الشطر الباقى من حياته .. انه قد تزوج رغم اصراره على البرج العاجى ، ولكنه ماذا يقول : « .. المرأة عندي هى المرأة دائما وان كنت اليوم أكثر شفقة بها وأشد حرصا على عدم الاساءة اليها » (١) .

ويربط توفيق الحكيم الفن بالمرأة، انه يراها مصدر الفنون والآداب ويؤمن بالهامها .. « انى اذ أتكلم عن الفن لا يسعنى الا أن أعترف مرغما ان المرأة هى روح الفن ، ولو لم توجد المرأة على هذه الارض فربما وجد العلم ، ولكن المحقق أنه ما كان يوجد الفن ، ذلك ان الالهام الفنى نفسه قد خلق على صورة امرأة ، وأن لكل لون من ألوان الفن عروسا هى التى تنتشر أزهاره على الناس ، ما من فنان على هذه الارض أبدع شيئا الا فى ظل امرأة ..

ان عداوتى لهذا المخلوق لن تنقطع ما دمت أنتشى منه ، ان عداوتى ليست الا دفاعا عن نفسى ، أقرن بين المرأة كشيء يوحى بالجمال وبين المرأة كمخلوق يريد أن يستأثر بكل شيء فى حياتنا (١) » .

فاذا تحدث عن زوجة الفنان رآها عاملا هاما فى حياته .. « زوجة الفنان هى تلك التى تعنى بزوجها ولا تطالب زوجها بأن يعنى بها ، هى التى تزيل متاعب زوجها ولا تنتظر من زوجها أن يزيل متاعبها ، هى التى تتلقى من زوجها همومه ولا تخيره قط بهومها ، هى المخلوق الذى يعيش صامتا صابرا باسمها بجوار الفنان طول العمر دون أن يشعر لحظة واحدة بوقر هذا الجوار (٢) » ..

لكن .. هل هذا الذى يرى المرأة على هذه الصورة الموحية الملهمة ، أحب حبا قويا جبارا .

انه يرى أن الحب .. ربما كان هو الشيء الوحيد الجميل الذى نعيش به ومن أجله نحن البشر .. « غير أنه فى فترات عاصفة يقوله » ان الحب فى هذا العالم عضو ربما تمكن العلم الحديث من بتره واستئصاله ، دون أن تخسر الانسانية شيئا كثيرا ..

فاذا أردنا أن يتجاوز الشيب الياكر بأحاسيسه وعواطفه هل يمكن أن تعطينا قصة « عصفور من الشرق » صورة الحب ، أم أن هذه الصورة تبدو رائعة فى « الرباط المقدس » ؟

لست أدري ، ولكنى أبحث عن الحب فى حياة الكاتب فلا أجد الا هذه العبارات الغامضة الحزينة المحرومة « .. انى أحب الحب ، وانك لتعرف ان للحب مقاما كبيرا عندي فى الحياة ، وفى كل حياة ، وربما كان الحب هو الشيء الوحيد الجميل الذى نعيش به ومن أجله نحن البشر .. آه .. لو كان القدر أعطاني هذه المنحة لحظة واحدة ، وجعلنى أجد أحدا يحبنى حقيقة ، مرة واحدة ، أنا الذى أعتقد طويلا أن عظماء الرجال هم عظماء العواطف وأقوياء الرجال هم أقوياء العواطف وأن الذى لا يعرف ولا يستطيع أن يحب انسانا لن يعرف ولن يستطيع ان يحب الانسانية » (٣) أى صرخة هذه ، أى نفس هذه المحرومة المشوقة ، ولكن هل حقا

(١) تحت شمس الفكر -

(٢) المصدر نفسه .

(٣) زهرة العمر .

أن توفيق الحكيم حزين ذلك الحزن الممض الذى تصوره بعض كلماته ..
« لا تذكرنى بالغد ، انى الآن أعيش ، حسبى هذا ، أعيش يوما فى
مونمارتر فردوس الفن ، الذى سافقده يوما ، سوف أذكره مع الحشرات ،
أما الآن فانى أقطن فى ناحية أخرى من الحى شأنى فى كل شهر ، ما أحلى
التنقل والحرية يا جان .. »

لم تتح لى لحظة من لحظات حياتى أن أحزن لحزن الطبيعة أو أبسم
لابتسامها ، فان ما عندى من أزمت داخلية شغل قلبى دائما عن الطبيعة ،
ان عيني مصوبتان دائما الى أعماق قلبى ..

لقد جاوزت الأربعين وما أبصر بعد فى الأفق طيف واحة مورقة فى
صحراء حياتى المحرقة ، ما قيمة الشهرة بغير سعادة ، وفيم الأدب والفن
بغير هناء .. »

يقول العقاد ان توفيق الحكيم متردد .. « بين عتبة الصومعة وعتبة
الحياة ... » ويصف سيد قطب طبيعة توفيق الحكيم بأنها « تشفق من
الحل الحاسم وتنفر من الوضوح الصريح ، ان الشك فى طبيعته والقلق
الدفين فى نفسه ، وهو معنى بالذهن الانسانى المجرد ، يوغل فى تأملاته
ويسبح فى فروضه ويثير مشكلاته ويتابع ومضاته .. »

هل تستطيع من هذه اللمسات أن ترسم صورة توفيق الحكيم ؟
أعتقد ان هناك خيطا آخر هو الصوفية ، فما صلتها بتوفيق ، هل
كان من المتوقع أن يتجه اتجاهها روحيا صوفيا خالصا .. ثم غلب عليه
طابع المفكر ؟ .. يقول محمد مندور : انه مفكر بعقله لايحواسه ، يعالج
المسائل علاج من لم تمسه عن قرب ، فالى أى حد يبدو هذا فى انتاجه ؟

ان « توفيق الحكيم » يضع أمامنا ضوءا جديدا لشخصيته « طفولتى
مملوءة بالغرائب منذ ولدت ، وحتى ساعة ولدت قيل انى لم أبك مثل
سائر الاطفال فحسبونى نزلت ميتا ، وكان الوقت ليلا فنبذونى للاعتناء
بالأم المريضة ، فلما عادوا الى وجدونى فى أتم صحة ، ساكنا صامتا أنظر
فى عجب وسرور الى نور الصباح ، أترانى أحببت النور من النظرة
الاولى (١) ! »

« أعجب ما فى حياة الانسان انها ليست حياة واحدة ، انها سلسلة

(١) تحت المصباح الاخضر .

حيوان تتتابع فى حلقات العمر الطويل ، فحلقة الطفولة لها حياتها المستقلة بجوها السحرى واتجاهها الملائكى ، وحلقة الصبا والشباب لها حياتها المستقلة بجوها الشعرى واتجاهها المثالى ، وحلقة الرجولة لها حياتها المستقلة بجوها التأملى واتجاهها الواقعى ، وحلقة الكهولة والشيخوخة لها حياتها المستقلة باتجاهها الفلسفى ، وهذه الحلقات منفصلة فى أكثر الاحيان احداها عن الاخرى انفصالا ملحوظا ، فان ما كنت تعيشه فى حلقة لا يصلح لك فى حلقة أخرى ، فالجمال الذى كان يفتك فى الشباب لا يؤثر فيك وأنت فى الرجولة والكتاب الذى يثقل عليك فى الصبا قد يسحرك فى الكهولة (١) » .

هذا رأى توفيق الحكيم فى أطوار حياته « ٠٠ انه (٢) لم يلق كثيرا بشخصه فى غمرة الناس ، ولكنه كان يلقى اليهم دائما بفكره يسعى بينهم ويؤثر فى نفوسهم ، كان شأنه شأن ذلك الجالس على الشط يلقى الفتات الى السمك وينظر اليه يجتمع عليه ويفترق .. »

توفيق الحكيم فنان يؤمن « بأن الفنان خلق ليخلق ومهما تكن الاسباب فان السبب الاكبر هو ان قبسا حل فيه من صفة الخالق .. »

ولكنه يرى أن الادب قد فشل تماما فى توجيه الناس والامم والاجيال وان اثره لم يعد أكثر من اثر السيجارة . فان كانت افادت احدا فقد افادته هو . ان الادب لم يحول الانسانية عن الشر ولم يدفعها الى الخير ..

(١) عصا الحكيم .

(٢) الرباط المقدس .



عبد المحمود العفاد

بدأ حياته بالصراع فهاجم شوقى وحافظ واشترك مع المازنى فى انشاء « الديوان » ، ثم مضى يصارع فى السياسة فى عنف وقوة عشرين عاما . كان قلمه أمضى الاقلام واشدها جرأة وحماسة ، وكانت خصومته أقوى شماسا وعنادا وقسوة .

ورأى العقاد بعد مضى أكثر من ثلاثين عاما أن حملته الاولى على الأدب القديم كان لها أثرها القوى « ٠٠ (١) وقد أنكرنا أصنام الأدب لأننا أنكرنا عملهم ، وطلبنا عملا أصلح منه وأوفى ، فأصلحناهم هم أنفسهم وحولناهم الى وجهة غير وجهتهم ، وجعلناهم يطرقون أبواب الفنون الحية بعد أن كان كلامهم كله أو أكثره مقصورا على المديح والثناء ، وشكوى الزمان والاخوان ، وفتحنا أبواب النقد القديم بعد أن كان التعرض لشاعر كامرىء القيس أو أبى الطيب كفرا أو جناية تعاب كما تعاب الجناية على الشرائع والقوانين ٠٠ »

استهل حياته الأدبية قارئاً ، وقد اختار أساتذته بنفسه ولم يفرضهم عليه أحد « لأنهم كانوا جميعا مؤلفين مشهود لهم برسوخ القدم فى صناعة التأليف أقر منهم من أشياء وأعرض عمن أشياء وأطلبهم حين أريد وحيث أريد » ٠٠

وتحت سماء أسوان الصافية بدأت نفس العقاد تتفتح ، وان كان المرض الذى ألم به فى مطلع الشباب قد أنشأ فيه طبيعة الاعتكاف وأفسح له المجال للدراسة والقراءة والتأمل ٠٠ وربما كان من أثره « أن (٢) استقر فى قلب العقاد حب الحياة والتشبيث بها والكفاح فى سبيلها ، فإذا واتاه الظفر فى عراك المرض ازداد تعلقا بالحياة وغلبة فى التمتع بأطاييبها ٠٠ وكان من عقبى ذلك الظفر أن أورثه زهوا وعزة وثقة بالنفس ورفاهة شعور بالكرامة ، وزاد بين جنبه نزعة المغالبة والمطاوله والاصرار » .

(١) العقاد - فى جريدة الاساس فى ١٩ - ١٠ - ١٩٥١ .

(٢) محمود تيمور « ملامح وغضون » .

كان يقرأ ثلاثة أنواع من الكتب «ما يبحث (١) في الأدب والوصف . وما يتناول علم ما وراء الطبيعة والحياة الأخرى - ان كان هناك حياة أخرى - ، وعلم الحيوان وما يتصل به فيما يختص بحياة الحشرات والحيوان وطباعها وغرائزها ، وأنا أقرأ حوالى الساعتين يوميا ، ومنذ سنوات كنت أقرأ سبعا أو ثمانى ساعات فى كل يوم ، ويتراوح عدد الكتب التى أقرأها كل شهر بين خمسة وسبعة ، وقد لا أقرأ من الكتاب غير فصل واحد ثم أضعه فى مكتبتي وربما عدت اليه فيما بعد ... »

وكان يقرأ كتباً كثيرة لا بقصد الكتابة فى موضوعها على الإطلاق اذ أن القراءة « هى التى تعطيه دون غيرها كثير (٢) من حياة واحدة فى مدى عمر الانسان الواحد ، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق ، وان كانت لا تطيلها بمقادير الحساب ، لا أحب الكتب لأنى زاهد فى الحياة . ولكنى أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفينى .. »

وفى الصبا الباكر رسم العقاد صورة حياته على احدى ثلاث شخصيات ، قائد عسكري ، أو ناسك صوفى ، أو عالم زراعى ، ثم تبلورت هذه الصور الثلاث حين وجد القلم وبدأ يكتب .

« .. كنت أقرأ كل ما يقع فى يدي من الكتب الادبية والدينية ومعظمها من الطبقات القديمة ، وقرأت فى مناقب الصالحين عن الاولياء الذين يمشون فوق الماء والاولياء الذين يسخرون الريح ولا يحترقون بالنار ، فأردت أن أكون مثلهم ، وترددت على المسجد فى أوقات الصلاة وكان مؤذن المسجد القريب من بيتنا رجلاً جميل الصوت أسمعته فى الفجر أحياناً ، وأسمع القصائد التى ينشدها ، وكان شجر البرعى لا يعجبني ، فلماذا لا أنشد مع المؤذن قصيدة من نظمي ؟ » .

ثم يقول « .. لا تزال صناعة القلم عندي شيئاً من صناعة السيف ، ولا يزال بحث الدين وما وراء الطبيعة عندي شاغلاً لا يعوقني عنه شاغل من شئون السياسة أو شئون المعيشة » .

وتمنى العقاد «الادب» لانه تمنى التعبير عن النفس «... لان التعبير عن النفس يجتمع فيه عندي تحقيق وجودها واستكناها حقيقتها وحقيقة ما حولها ، وليس فوق هذا المطلب من مطلب رفيع يتطالع اليه موجود شاعر بوجوده» (٣) .

(١) المصور : في فبراير سنة ١٩٤٤ .

(٢) الهلال - في مارس سنة ١٩٤٨ .

(٣) الرسالة - أمنتى - أول ديسمبر سنة ١٩٤١ .

واشتغل العقاد بالتدريس ، ثم بالصحافة ، ثم انصرف الى الأدب
الصرف وكتب المقالة والقصة والقصيدة ، ولكنه يبلغ غاية قوته فى الثمرة
وأدب المقالة التحليلية على وجه أخص .

يقول زكى مبارك « هو كاتب أقوى منه شاعرا لأن ذهنه ارتاض
على التعبير بالترسل مما ارتاض على التعبير بالقريض .

العقاد السياسى يرمى ويرمى ويظلم ويظلم فى كل وقت فهو من أبناء
السماء عند قوم ومن أبناء الارض عند آخرين أما العقاد الكاتب الادبى فهو
من الطبقة الأولى بشهادة الجميع ..

والعقاد الناقد لا ينحرف عن القصد الا فى حال واحدة حال الحكم
على من يعاديه من المعاصرين ، أما حكمه على المفكرين الذين بعد عهدهم فى
التاريخ فهو غاية فى العدل والسداد ٠٠٠ »

وقد وصف العقاد بأنه يحب العزلة ويحرص عليها ، وهو يرى أن
فلسفة حياته تفرض عليه العزلة فى بعض الأوقات (١) « وليس معنى
العزلة أننى أحارب الناس أو أننى لا أبادلهم العاطفة والشعور فأنى أحب
مسألة الناس جهدى ولا أستطيع لنفسى أن أبدأهم بما يسوء .. ولكنى
لا أبيع لأحد أن يستخف بالاساءة الى ولا سيما الاساءة التى على اعتزاز
بقوة لا تدفع ، واعتزاز بطغيان تعنوا له الجباة فمثل هذا المسء لا أدعه فى
طغيانه دون أن يندم عليه .. »

وكان أحيانا لا يغادر داره أسبوعا كاملا « لست أنسى فزع أديب
زارنى يوما وعلم أنى لم أبرح الدار منذ أسبوع فهاله الأمر كأنه يسمع
بخارقة من خوارق الطبيعة ، فقلت له لا تعجب انها وراثه من أبوين ،
يؤكداه الزمن الذى لا تحمد فيه معاشره أحد الا من رحم الله .. »

وهو يحدد موقفه من الناس تحديد الخير بالناس المتمرس بالتجارب
« بأنه لا ينتظر منهم كثيرا ولا يطمع منهم فى كثير ، والطمع فى انصاف
الناس اذا كان فى الانصاف خسارة لهم أو معارضة لهواهم ، هو الكثير
الذى ما بعده كثير ، فهم منصفون اذا لم يكلفهم الانصاف شيئا ولم
يصددهم فى هوى من أهوائهم .. »

« والحياة فى نظرى لا قيمة لها ولا تستحق أن نحرص عليها الا اذا

(١) الرسالة فى ١٣ من يناير سنة ١٩٤١ .

كانت لنا شروط نملئها عليها فترضاضها ، ولم تكن كلها شروطا تملئها
هى علينا فترضاضها ولا نملك الصرف والعدل فيها » .

وهو قليل الاكتراث للمقتنيات المادية : « لم أشعر قط بتعظيم انسان
لأنه صاحب مال » .

وورث عن امه الكثير الا القصد فى النفقة وتدير المال يقول « ان
الوالدة لاتنكر من شئونى شيئا الا الورق ، الورق الذى لاينتهى ، هو الذى
يمرضنى . . وهو الذى يصرفنى عن الزواج . . قلت لها ذات يوم : لو
وجدت لى زوجة مثلك تزوجت الساعة » .

✓ لم يرحل العقاد ، ماعدا أسفارا قصيرة الى فلسطين والحجاز ، وهو
يجب أن يسافر الى أنحاء العالم من مكانه عن طريق الكتب .

يقول « لقد تعلقت بالسياحة فى أوائل صباى ، وشاقنى أن أسبح
هنا وأسبح هناك بين مشارق الارض ومغاربها ، ولكنها كانت كلها كما
تبين لى بعد ذلك عارضا من عوارض الصبا التى تنزوى مع الزمن وراء
غيرها من الميول المتمكنة فى السليقة ، فما زالت تضعف وتضعف حتى
ليسعنى أن أقول اليوم اننى لولا رياضة المشى التى تعودتها لما خطر لى
أن أبرح المنزل أياما بل أسابيع ، ولذلك سبب منى وسبب من أحوال
العصر الذى نعيش فيه ، أما السبب الذى منى فبعضه يرجع الى حب
العزلة التى نشأت عليها ووراثتها من أبوى ، وبعضها يرجع الى شعورى
بالقراءة التى تعيننى ، فانى أشعر بأننى لا أقرأ سطورا على ورق ولكننى
أحيا فى تلك الاوراق بين أحياء » .

وبالرغم من أن العقاد كره كتابة « اليوميات » وقال ان أمرين
يباعدان بينه وبينها كلاهما حقيقى بالاثبات لأنهما أيضا من ظواهر
النفسيات ، وظواهر الفترة التى عشت فيها ، أول الأمرين أننى غير مطبوع
على التوجه الى محراب الاعتراف لأنه ضرب من ضروب الاستغفار لأستريح
ليه ، أو لأننى أدخر لنفسى خفاياها أو أنزهها عن البوح بها لأحد غير
مستثن من ذلك الا القليل » .

أقول بالرغم من هذا فقد كتب العقاد اعترافاته على عدة صور
وفصول أمكن أن تعطينا ملامحه وسرائره واضحة الى حد كبير .

✓ « . . (١) أول ما اعترف به أننى مطبوع على الانطواء . . واننى

مع هذا خال بحمد الله من العقد النفسية الشائعة بين الأكثرين من أندادى
فى السن ونظرائى فى العمل وشركائى فى العصر الذى نعيش فيه .

لقد ورثت طبيعة الانطواء من أبى وأمى ، فلا أمل الوحدة وإن طالت
بغير قراءة ولا تسلية ، ولا أزال أقضى الايام على حدة حيث يتعذر على
الآخرين قضاء الساعات واللحظات .

ويغلب على المتطوعين أنهم لا يالفون الناس بسهولة ، واعترف بأنى
واحد من المنطوين فى هذه الخصلة . ولكننى أعترف كذلك بأن الألفة التى
تصح بينى وبين أحد الاخوان لا تقطع ولا تتعرض للقطيعة باختيارى وقد
يتعدى الأمر ألفة الاخوان الى ألفة غيرهم من الأحياء والأشياء .

واعترف الى جانب هذا بأننى لا أعرف التوسط بين الحب والكرهية
ولا أريد أن أعرفه ، وقد يبلغ من ضعف ارادتى أحيكنا أن أحتال على
نفسى ، كأنها شخص آخر أطلعه على بعض مرادى وأخفى عنه بعضه .

واعترف بأنى من الزاهدين فى البذخ والطعام ، ولكننى أعترف بأنه
زهد لا فضل لى فيه لانه يكفينى مشقة المغالبة والمقاومة .

واعترف بأن عنان النفس يفلت من يدي فى حالات كثيرة ، ولكنها
حالات أراجعها أحيانا فلا آسف لافلاته ، بل أرى أن ضرر الإطلاق أخف
من ضرر الشد والکظم وثنى العنان .

... لا أطالب أحدا بجميل لأن جميلى لنفسى سابق لكل جميل ،
ولكننى أعترف كذلك بأنى لا أطيق التواضع الكاذب الذى هو رياء من
المتكلم وغفلة فى السامع .

واعترف بأنى أحب الشهرة والخلود ، ولكننى أعترف كذلك بأنى
لاأطلبهما بثمن يهبط من كرامتى .

انى من أعجز الناس عن رفع حاجز واحد يقوم بينى وبين انسان ،
ولا سيما حاجز الكلفة والاغراض فاذا تلقانى انسان يمثل هذا الحاجز
فلا اقتراب بينى وبينه أبد الدهر ، وليس أشق على نفسى من الزلقى
التي يزدلف بها بعضهم لكسب صداقة أو تمكين علاقة ...

انى أسىء الظن بالناس لانى أحسن الظن بهم ..

العادة قوية السلطان على سليلقتى وخلقى لا تعصمنى منها
الا الثورة النفسية » .

هذه ملامح الصورة النفسية وخطوطها الرئيسية كما رسمها في أكثر من موضع من كتاباته ، وهى فى مجموعها تعطى صورة رجل كونه تصاريف الايام ومنحته الخبرة الطويلة ، وأتاح له الاتصال بمختلف البيئات الادبية والسياسية طبيعة متعددة الجوانب .

وهو معجب فى الافراد الذين عاصرهم برجلين غاية الاعجاب ، اما احدهما فهو محمد عبده . . « الحق ان اعجابى بهذا الرجل العظيم كان من أكبر المؤثرات فى توجيه حياتى وتزويدى بالقدوة الصالحة فى الاستقلال بالرأى والمجاهرة بالعقيدة ولو ذهب بى الامر مذهب التحدى والمخاطرة وقلة المبالاة بما يكون . . » وأما الثانى فهو سعد زغلول .

ومذهبه فى الادب ورأيه فى المرأة كلاهما غاية فى الاستواء فهو يكره الأدب المكشوف ويحاربه ، ولا يجامل المرأة فى تملق رضائها بالموافقة على رأياها أو هواها .

رجع عن ترجمة حديقة أبيقور لأناتول فرانس «لانه بدا له أن أدب الاستخفاف الذى يدور عليه ذلك الكتاب ليس بالأدب النافع ، كما رفض ترجمة قصة « لادى شاترلى » لانها من الادب المكشوف الذى نحاربه أشد المحاربة .

ويقول عن الكاتبة «مى» وكان بينه وبينها عاطفة ، كان لها أبعد الأثر فى حياته الأدبية ولعلها كانت مصدر الصراع بينه وبين مصطفى صادق الرافعى وغيره . .

« كنا نتبادل الآراء كثيرا ، ونختلف كثيرا ولا نستغرب هذا الخلاف ولا نكف عن تبادل الآراء ، لأن الخلاف بين كل أثنى وفيه لطبعها وكل رجل وفى لطبعه أمر من البدهاة بمكان ، فهى تنظر بعين حواء الى حقائق الدنيا وهو ينظر بعين آدم أو كلاهما مخلص فى خلافه ومستفيد »

ويصور موقف المرأة فى « مطالعات » . . اننا فى عصر يميل الى محاربة المرأة فيما تكتب من آراء فلسفية كانت أو اجتماعية ، . . فيحبس الكاتب قلمه عن كل ما يغضب المرأة ولا يوافق هواها كما يحبس لسانه عن ذلك فى أندية الأنس ومجالس السمر ، ويكتب حين يبحث فى مسائل الاجتماع بقلم السمر الظريف لا بقلم الناقد الأمين . .

هذا غاية الاستقامة فى الرأى والنزاهة الفكرية عن المجاملة ومبعث هذا أن العقاد يؤمن برأيه ويقدر مكانة أدبه . .

«... ولقد تعبت كثيرا في تحصيل الادب والثقافة ، ولكنى اعترف بعد هذا التعب كله بقصورى عن الفاية التى رسمتها امامى فى مستقبل صباى فلم ابلغ بعد غاية ولا قريبا من غاية .. »
وتلك صورة الطموح فى نفس الكاتب الذى وصل الى ذروة الشهرة والتبريز .

لعل ابرز حادثين فى حياة العقاد : هما سجنه سنة ١٩٣٤ ويبدو ان السجن عدل من اتجاهه السياسى وكان حافزه على الخطوة التى تلت ذلك حينما تحرر من الحزبية بعد سنوات ، وان كان اكسبه مزيدا من الاعتداد والوقار . يصور ذلك قوله :

لبث جنين السجن تسعة اشهر
وها انذا : فى ساحة المجد اولد
وفى كل يوم يولد المرء ذو الحجا
وفى كل يوم ذو الجهالة يلحد

الامر الثانى البعيد الاثر فى حياته وصول الالمان الى العلمين وهجرته الى السودان ، وكان يحمل فى ايام الحرب على الالمان حملات عنيفة وألف عن هتلر كتابا تناوله فيه تناولا يتفق مع نزعته الديمقراطية . لم تطل هجرة العقاد فى السودان ولكنه خسر منها كثيرا . خسر الكثير من ذخائره الادبية الخالصة التى لم يكن بد من اتلافها .

« فى هذا اليوم بعينه - أى عيد ميلاده - وصلت جيوش روميل الى العلمين وأوشكت أن تعبرها الى طريق العامرية فالقاهرة فلاسكندرية وهو الهوان على أيدي أناس هم أخبر الناس بالهوان ولا فرار من الموت ان وجب ، ولكن البقاء للهوان اخلال بكل واجب بحرص عليه الانسان .

وليس هذا أفجع ما فى الصفقة الفاجعة بل أفجع منها الليلة التى قبلها أو هى ليلة المذبحة كما سمينها ، لأنها جراحة على الماضى تهون معها الجراحة على المستقبل أو على المجهول .

كل ما أتركه بعدى لا أباليه ، الكتب يصنع الله بها ما يشاء ، ولا أكتفم القارئ أننى على خطوة من احراقها فى كثير من الاوقات غضبا على تكاليف المعرفة حيث يسعد الجاهل بغير تكاليف ، وماذا أترك غير

الكتب مما أباليه ان كنت أترك الكتب ولا أباليها هباء أو كالهباء .
الا أوراقا متفرقات فيها ودائع العمر التي يموت عنها الانسان ولا تسخو
نفسه بأن تموت قبله .

وهى لا تنقل الى حيث تفتح وتقرأ فى مدخل كل أرض مطروقة ،
وهى لا تودع عند أحد كائنا من كان ، فلا موئل أكرم من التمزيق ثم
نار الحريق ، وانقضت ساعتان قبل تمزيق الورقة الاولى ولم تنقض
الا دقائق قبل تمزيق الورقة الاخيرة .

وانجلت الثورة عن كومة من الورق كل قطعة منها موصولة بعرق
ممزق وشعل من النار لم تكن من قديم عهدها الا شعلا من الناس
ولكنها عادت الى رماد » .

ويصور العقاد نفسه على قمة الحمسين فيقول : « ان الخمسين
نهاية الكسب أو التحصيل من الحياة ، ليس بعدها ما يأخذه الانسان
من الدنيا ويضيفه الى تكوين عقله أو جسمه ، ولكنه لا يزال بعدها
يعطى الكثير ويفقد الكثير .. »

فاذا بلغ قمة الستين صور مدى التحول الذى اكسبته اياه هذه
السن (١) .

« .. زادت قدرتي على البحث والدراسة ، ونقصت قدرتي على
مواصلة الكتابة والقراءة ولكننى عوضت هذا النقص بازدياد المراتبة على
الكتابة وازدياد الخبرة بالتقاط أصعب الفوائد من أيسر القراءات .

زادت حماسى لما اعتقد من الآراء ، ونقصت حدتى فى المخاصمة
عليها لقلّة المبالاة باقناع من لا يدعن للرأى والدليل .

لم تنقص رغبتى فى طيبات الحياة ولكننى اكتسبت صبرا على ترك
ما لا بد من تركه .

وارتفع عندى مقياس الجمال ، ما كان يعجبنى قبل عشر سنين
لا يعجبنى الآن فلست اشتهى منه اكثر مما أطيع .

وكنت قبل عشرين سنة كما انا الآن قليل الرجاء فى خير بنى
الانسان ، ولكن فلسفة الشعور هنا قد تحولت الى فلسفة العمل .

(١) المصور : اغسطس ١٩٤٩ .

كنت أحب الحياة كعشيقة تخدعنى بزینتها الصادقة وزینتها الكاذبة ، فأصبحت أحبها كزوجة أعرف عيوبها وتعرف عيوبى ولا أجهل ما تبديه من زينة وما تخفيه من قبح ودمامة .

فاذا أردنا أن نتعرف سائر حياة العقاد الوجدانية تيسر لنا ذلك على أوسع نطاق وأوفاه .

« . . ان الانسان لا يجد نفسه فى شىء كما يجدها فى الحب (١) »
وانه لا يعرف ما فيها من قوة وضعف ومن عطف وجمود ومن رحمة وقسوة ومن خفايا وظواهر ومن فجیعة وضحك ومن حكمة وحماسة ومن انسانية وحيوانية كما يعرف ذلك جميعه فى الحب فالحب ومعرفة الناس صنوان . . »

وهو يصور الحب تصوير العارف الخبير « . . ان الرجل يعشق الانثى فى مبدأ الامر لانها امرأة بعينها وامرأة بصفاتھا الشخصية ، وخلالها التى تتميز بها سائر النساء ، ولكنه اذا أوغل فى عشقها وانغمس فيه ، أحبها لانها المرأة التى تتمثل فيها الانوثة بحذايرها . وتجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتها ، فهى تثير فيه كل ما تثيره الانوثة من شعور الحياة .

ان الانوثة تثير فيه شعور القوة وشعور الجمال وشعور الانسان كله وشعور الحيوان كله ، بل تثير فيه حتى الشعور بما وراء الطبيعة من آراء موهوبة ومن أغوار لا يسير مداها فى النور والظلام (٢) . . . »

ويصور فلسفة الحب فى قوله « يجمع الحب بين اثنين لا يخطر على البال انهما يجتمعان ، ويتكرر الحب فى حياة الانسان الواحد حتى ليكون المحبوب اليوم على نقيض المحبوب بالامس فى معظم المزايا ومعظم الصفات ، ويتقارب البعيدان ويتباعد القريبان ويتجدد القلبان بين آونة وأخرى كأنهما من طبيعة الجان .

وخلاصة التجارب كلها فى الحب : انك لا تحب حين تختار ، ولا تختار حين تحب ، واننا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت . . »

(١) ويصف الحب فى صورة أخرى (الحب شاغل يلهج النفس باحد من الناس فيبدا الحب متى امتلات النفس بهذا الشاغل وان لم تقع المساعدة بالبيان .
(٢) هذه الشجرة .

وقصة «سارة» تعطينا صورة للعقاد العاشق المحب فى مختلف صور رضاه وغضبه وقوته وضعفه .. هذه الصورة تبدو فى أنه قليل المرح فيروقه من المرأة أن تكون مريحة بغير تكلف ولا مبالغة ، ويسمى المرح الذى يزين المرأة ويشوق الرجل مرحا موقعا تشبيها له بالغناء الذى ينطلق انطلاقا وينبعث انبعاثا ولكنه يقف حينما يحسن الوقوف ، ويسكن حينما يطيب منه السكون .

وهو يحب من المرأة الزينة التى تغرى من يبصرها اغراء لا يخفى .

وهو يحب المرأة التى تدرك الفكاهة ويكره أن تتخذ من فكاهتها صناعة .

وهو يحب ربة البيت التى تكون أول خدمة فيه لأنها سيدهته الوحيدة ، ويحتقر المرأة التى تأنف من تلويث يديها فى مطبخها .. » .

وينتهى من ذلك الى أنه « اذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء فذلك هو الحب ، واذا أصبح النساء جميعا لا يغنين الرجل ماتغنيته امرأة واحدة فهو الحب ، واذا ميز الرجل المرأة لا لأنها أجمل النساء ولا لأنها أذكى النساء ولا لأنها أوفى النساء ولا لأنها أولى النساء بالحب ، لكن لأنها ... هي ، بمحاسنها وعيوبها ، فذلك هو الحب .. » .

وفى حياة العقاد أكثر من حب وأكثر من «سارة» .. حتى بعد أن ارتفعت به السن . ففى سنة ١٩٤٢ عندما عاد من السودان ، نشر قصيدة فى الرسالة (١) يقول فيها :

لاتراعى بعد هذا من فراق وفوات .

قدر الله كفى لك فى ماضى وات

كلما فرق شملينا دعانا فالتقينا

ومع ذلك فان العقاد قد عاش حياته دون أن يتزوج ، وله فى ذلك رأى أعلنه منذ أكثر من عشرين عاما (٢) وقام عليه حتى ترك هذه الدنيا « .. لو كنت فى الريف أو كانت صناعتي غير الادب لتزوجت ، ولكننى الآن لاأستطيع الزواج لاننى أوطن نفسى دائما على أن أواجه كل نوع من أنواع المعيشة وأجازف بكل شيء ولا أبالى بالمستقبل » .

(١) أغسطس عام ١٩٤٢ .

(٢) مجلة كل شيء - أغسطس عام ١٩٣٥ .

وبعد ٠٠٠ فالعقاد تاريخ طويل ممتد في الادب العربي المعاصر منذ عام ١٩١١ ، وهو يمثل للخلود بعد ماسكن الصراع الحزبي وبدأ يدخل باب الادب الخالص ، على ان هذا لا يعنى انكار آثاره من قبل ولكن الاتجاه الاخير الذى أخذ صورة الاستقرار يمثل العقاد بعد ما تبلورت أفكاره واستقر هدفه وتوضح منهجه ، لقد تحول العقاد وتنقل في هذه الفترة بين الكتابة والسياسة والكتابة الادبية والنقد والتراجم وتلخيص الكتب ودراسة شخصيات سياسية «كسعد» وشاعرة «كأبن الرومي» و «المتنبى» . ثم بدأ يتصل بالتراث الاسلامى فكتب عبقریات محمد وعمر وأبى بكر وعلى والحسين وبلال . وكتب « الله » و «فلسفة القرآن» وهنا استقر العقاد على طابعه الاصيل « كتابة التراجم النفسية » .

ثقف العقاد نفسه وقدمته السياسة الى الجماهير في صورة ضخمة وظل فترة طويلة دعامة من دعائم الكتابة الصحفية الحزبية ، ولم يحل هذا التبريز في ميدان السياسة دون أن يزاول العقاد الادب فيكتب فيه يوما كل أسبوع ويصدر بين حين وحين كتابا من مؤلفاته ، أو مجموعة من مقالاته (١) .

حتى اذا توقف الصراع السياسى الداخلى ابان الحرب العالمية الثانية أنتج أجود آيات أدبه . . « كان النشاط السياسى يحول بينى وبين الفراغ للتأليف والتدوين ، فلما حيل بينى وبين هذا النشاط في وقت من الاوقات كانت النعمة أبرك من النعمة ، فوجدت فراغا من الوقت لتأليف الكتب لم يكن ميسورا في ابان العراك ، وظهر لى نحو عشرين كتابا في شتى الموضوعات » .

وحين يتصل تاريخ العقاد الادبى بالسياسة يبدو في صورة « السياسة » نفسها ، وهى صراع وخصومة ونقد وهجاء قد يصل غاية الشوط في العنف والشماس وقد يبدو في صورة المتناقضات .

أما حين يخلص للأدب الصرف فانه يبدو غاية في القوة والاستقامة والوضوح .

والعقاد ولد في ٢٨ من يونيه عام ١٨٨٩ في اسوان وكتب أول مقال له في جريدة الظاهر واشتغل بالتدريس مع المازنى وفريد أبى حديد عام ١٩١٥ .

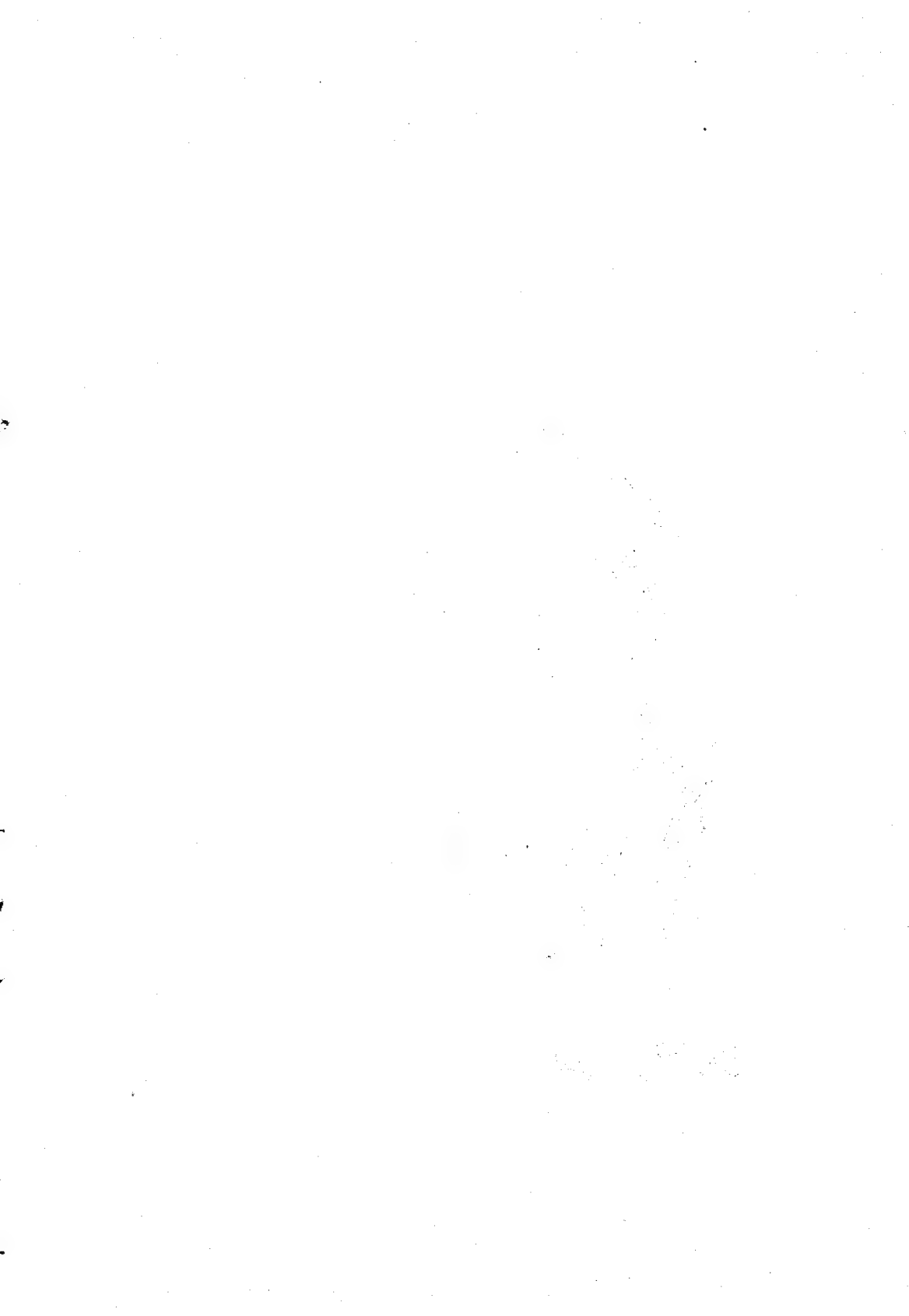
(١) ساعات بين الكتاب (مطالعات - مراجعات) .

وقد وصف أمانيه (عام ١٩٥٤) وهو سن الخامسة والستين
بقوله :

« أما كل ما أطلبه فلم أبلغه ولا أعتقد أن أحدا بلغ كل ما طلب ،
كان هدفي في الحياة أن أنولى القيادة العسكرية ، ثم تحولت الى طلب
العلوم الزراعية ، ثم تبين لي من مراجعة نفسي مراجعة دقيقة أن وراء
الطموح الى القيادة العسكرية والى العلوم باعثا واحدا هو حب الادب . »



محمد حسين كافي



هذا كاتب وأديب اختطفته السياسة ولم يسترده الأدب مرة أخرى سوى أنه أذاع مذكراته السياسية في خلال هذه الفترة (١) .

وكاد أن ينطوى في تاريخ الأدب المعاصر ، الأديب الذى عرف بالاسهاب والمقالات المطولة فى صدر « السياسة الاسبوعية » زمنا .

فقد بدأ حياته بالمحاماة ثم أحب الأدب واتجه الى الصحافة حينما فاستقر بها طويلا ، وانتج خلال هذه الفترة آثاره الأدبية المعروفة الآن، ثم انصرف الى التاريخ ، واغرم بالتاريخ الاسلامى بوجه خاص ، واتيح له خلال هذه الفترة أن يجلى تاريخ الرسول وان يوغل فى دراسة الدولة الاسلامية وابطالها .

وفجأة توقف ، فقد انتقل من الصحافة الى السياسة ، واتيح له أن يرأس مجلس الشيوخ بعد أن كان يرأس تحرير صحيفة يومية .

واستنزفت السياسة بصراعا ومناوراتها ومتاعبها قواه كلها ، فتوقفت آثاره التى كان قد بداها عن الاتمام ، فلم يكتب ولم يكمل « الشرق الجديد » ولا تاريخ السيرة .

ولكن « هيكمل » يريد أن يقول لنا فى أكثر من مناسبة : انه لم يكن اديبا ولذلك فلا ضرر عليه أن ينصرف عن الأدب يوما .

« ثم ماذا (٢) ترانى يا صديقى انتجت ، دعك من فصول يومية تكتب فى الصحف فانت اعرف الناس بتفاهة ماينفق من مجهود فى هذه الفصول ، دعك من العمل فى حزب سياسى فانت ادرى بالسياسة المصرية ، ما هى وما مبلغ الجهد فيها ، دعك من هذين وانظر واياى فيما انتجت انه لاشئ أو لا يكاد يكون شيئا ، وانا رجل بينى وبين الخامسة والأربعين شهور .

(١) وقد أصدر قصته الجديدة « هكذا خلقت » .

(٢) ملحق السياسة (الصادر في يونيه سنة ١٩٣٣) .

... وما أضيق بأسلوب ولم أأخذ الادب يوما صناعة ولا أنا توفرت على دراسة الادب ، انما أنا رجل درس القانون ودرس الاقتصاد والسياسة ومال الى قراءة الفلسفة والادب لا الى دراستهما دراسة انقطاع وتمحيص .

وقد كان هذا ارهاصاباًن هيكمل يعود مرة أخرى الى فنه الاول : الاقتصاد والقانون ... وقد كان !

ولكن هيكمل قد ترك آثارا قوية في الادب العربي المعاصر ، لايمكن أن تنسى وكان أبرز تحول في تاريخه الادبي هو دراسة السيرة والتاريخ الاسلامى .

كان هيكمل «حفياء» بالتاريخ منذ بدأ حياته ، فقد تناول الكثير من رجال مصر ، كما تناول جال جاك روسو ، وبعض كتاب أوروبا بالبحث والدرس ، ثم تبلور هذا الاتجاه فى دراسة للتاريخ الاسلامى كان مفتاحها كتاب « أميل درمنجم » عن محمد فقد لفت نظره هذا الكتاب ، فاذا به فجأة يواجه قراء السياسة الاسبوعية فى شتاء سنة ١٩٣٢ ، بفصول جعل عنوانها « حياة محمد لأميل درمنجم : عرض وتعليق : محمد حسين هيكمل ، وقد وصف هذا الاتجاه فى مقدمة كتاب « حياة محمد » بقوله « بدأت أراجع تاريخ محمد وأعيد النظر فى سير ابن هشام ومغازى الواقدي ، وعدت الى كتاب سيد امير على « روح الاسلام » ثم حرصت على أن أقرأ ماكتبه بعض المستشرقين ، فقرأت كتاب درمنجم وكتاب واشنطنون ارفنج ثم انتهزت فرصة وجودى فى الاقصر شتاء عام ١٩٣٢ . وبدأت أكتب ، ولقد ترددت يومئذ أن جعل البحث الذى أطالع به قارئى من وضعى أنا خيفة ما قد يقوم به أنصار الجمود والمؤمنون بالخرافات من ضجة تفسد على ما أريد » .

ولا شك أن كتاب هيكمل عن حياة محمد ، كان تحولاً واضحاً فى تاريخه الادبي بل فى تاريخ الادب العربي المعاصر كله فالرجل الذى عكف منذ شبابه على دراسة آثار الادب الاوربي ، والذى كان يدعو بقوة الى الحضارة الأوربية وآثارها ، يتحول الى الشرق والى التراث العربي فيقرأه ويمعن فيه ويتناول على هذه الطريقة التاريخية الحديثة .

أى العوامل ذلك الذى دعا «هيكمل» الى أن يمضى فى هذا الاتجاه ؟ هل يمكن أن يقال ان كتابنا الذين كانوا يتزعمون المدرسة الحديثة

ويدعون الى الحضارة والثقافة الأوربيتين ، قد داخلهم الشك في تقدير هذا الادب حينما انهزمت المبادئ الفكرية الاوربية أمام المطامع الاستعمارية ، أم أحس كاتبنا أن الانسانية أصبحت في حاجة الى غذاء روحى يرد عنها ذلك الظلم الذى فرضته الحضارة المادية المسلحة بأسلحة العلم والفكر لتحطم وتدمر وتستعمر ؟ .

أم اكتشف أن الكتاب والمستشرقين الاوربيين انما يعلمون لحساب الاستعمار وتغريب الشرق ، عند ذلك عاد الى التراث العربى محاولا أن يستخرج منه صورة نقية من صور البعث الروحى ؟ .

أن «هيكل» لا يحدثنا عن ذلك بأكثر من أنه تأثر بحملات المبشرين التى كانت قد استشرت في هذه الفترة ، فدفعه ذلك الى دراسة السيرة للدفاع عن صاحبها ، ورد عدوانهم .

ولعل هذا يدفع عنه ماوصف به ، من أن اشتغاله بالسياسة قد أثر في فهمه للأشياء فلا شك أن عمله السياسى هو الذى دفعه في هذا الاتجاه الجديد الخصب « ... اذا كان اشتغالى المتصل بالسياسة قد أثر في تصورى للأشياء وفي حكمى عليها ، فانما كان أثره أن زادنى تقلبنا للأشياء ، وامتحانا لها ، وتعمقا في بحث ماتنطوى عليه وما ترمى اليه » . ولكننا نظلم «هيكل» اذا جعلناه من رواد الادب الاسلامى الحديث دون أن نذكر له أثر آخر كان به رائدا من رواد القصة ذلك هو قصة « زينب » .

فقد وضع هيكل باكورة القصة المصرية ١٩١٧ ولكنه لم يواصل السير في هذا الطريق ، وان كان قد انشأ بعض القصص بعد ذلك (١) .

وهيكل كاتب جزل العبارة ، واضح الأداء ، مستفيض ، يقلب الفكرة على جوانبها ، ويبحثها من جميع اطرافها ، ويعرض لها عرضا فيه شمول وفيه أناة وفيه دقة ، وهو يصف أسلوبه بأنه أسلوب قانونى « وطبيعى أن يكون أسلوبى الذين درسوا القانون والذين يرون أن تؤدى المعانى بالالفاظ لاتزيد عليها ولا تضيق بها ، والذين لايعنيهم في ذلك بهرجة اللفظ للفظ ، وقد زادنى حرصا على هذا الاسلوب أنى رأيت مثله موضع الاطراء من طائفة من كبار الكتاب والفلاسفة » .

والكن هيكل لايلبث أن يتهم كتاب العصر بأنهم لايعرفون اللغة

(١) ثورة الادب .

العربية « نحن مع احترامنا للغة الغربية ، لانعرف اللغة العربية ، نعم . . نحن لانعرف «عربى» ولست اذ اقول هذا اقله عن تواضع كما اعتاد البعض ، ولكنى اقله لانه يعبر عن الحقيقة فى أمر الأكثرين منا ، فنحن قل أن نقرأ كتابا باللغة العربية غير ما قرأنا بدء صبانا ، ولا يزال حتى اليوم هو الأساس الذى نصدر عنه فى كتابتنا وتعبيرنا عن عواطفنا ومشاعرنا» . (١)

سافر هيكى الى أوروبا فى مطلع الشباب فالى أى مدى كان أثر ذلك فى أدبه وإنتاجه ؟

يقول « سافرت الى باريس وجعلت ادرس اللغة الفرنسية واتصل بأدبها فأخذ اليه من هواى كأشد ما تأخذ حسناء اليها هوى مفرم بها ، ودفعتنى هذه المطالعات المتصلة وما فتحت عليه عينائى من جمال البيئة المحيطة بى ، الى الاعجاب بالحضارة الغربية التى تنتج مثل هذه الثمار العذبة الشهية » .

غير أن هيكى لم يلبث حين عاد الى مصر أن بدأ أقرب الى الاعتدال فهو لم يسرف فى الاندفاع وراء الادب الأوربى ، وآية ذلك دعوته الى الفرعونية وربط الحاضر بالماضى ، ومهما يكن من أمر هذه الدعوة وصداها ومصيرها فانها قد تبلورت بعد ذلك فى نفس هيكى على صورة أخرى حين بدأ يكتب عن «الاسلام» فقد اتسع المعنى القومى الذى كان يدعو اليه الى صورة أشد قوة وعمقا حين ربط تاريخ الشرق الحديث بالاسلام ودعوته ومدنيته وإمبراطوريته .

والحق ان هيكى كان فى حياته الفكرية أقرب الى الاعتدال من زملائه زعماء المدرسة الحديثة ، كان أشد رفقا ، وأكثر اعتدالا ، حتى أسلوبه فى الكتابة السياسية كان مثالا للرفق والأناة وان لم يخل من قوة ورغبة فى الصراع .

فهو لم يعرف بالخصومات الجريئة التى عرف بها طه والعقاد ، ولم يعلن ثورته على القدماء ثورة واضحة ، وهو فى الادب يؤمن بالملاءمة بين العلم والأدب ، وبين تراث الشرق وحضارة الغرب ، وبين الأحياء والبعث من ناحية ، والنقل والترجمة من ناحية أخرى .

اتصل منذ شبابه بالباكر بالجريدة وتعلم على خاله لطفى السيد ،

وعاش في هذا الجو الجديد ، فلما عاد من أوروبا ، ونشأت الأحزاب ، كانت « السياسة » هى مدرسة التجديد التى جمعت طه وهيكى وعزى وعبد الرازق .

وكان لونها الواضح وثقافتها الظاهرة ، الفرنسية فى أبرز معالمها ، وكان منهاجا مخالفا لمنهاج المدرسة الأخرى التى أطلقت على نفسها المذهب الجديد والتى كانت أشد ثورة وهدما ، وأكثر اتصالا بالثقافة الانجليزية ، وأكثر حرجا لحافظ وشوقى وهى مدرسة « الديوان » وعلى رأسها العقاد والمازنى وشكرى .

ولكن هل كان طريق المدرسة الحديثة واضحا ؟ ٠٠٠ وان كان كذلك فماذا يعنى هيكى حين كتب فى مقدمة ثورة الأدب (١) ٠٠٠ «ومهما يكن من أمر فان ثورة التجديد فى الأدب قد طفرت بالقديم وجرت الى ناحيتها حراس حصونه ، حتى كادوا يسلمون المجددين مفاتيحها ، ولكن ما أنفق من الجهود التى هأت للفوز فتح عيون أصحاب الجديد واسعة وجعلهم يتساءلون : أين نذهب وماذا إليه من جديد نقصد ؟ ٠٠٠ » .

والحق أن هذا التساؤل له معناه ، وانت حين تدرس طه وهيكى والعقاد والمازنى تستطيع أن تعرف فى يسر أن هدف هذه المدارس الجديدة إنما كان نقل الانتاج الغربى إلينا بصورة أو بأخرى ، وتأتى الإجابة الواضحة على سؤال هيكى بعد فترة طويلة من حياة هؤلاء الكتاب . . بعد أكثر من عشرين عاما ٠٠ عندما يبدأ طه فى كتابة « هامش السيرة ودعاء الكروان » وهيكى فى كتابة « حياة محمد » والعقاد فى كتابة « العبقريات » .

لم يغير هيكى لونه السياسى ، منذ بدء حياته الفكرية والسياسية مع الإحرار الدستوريين حتى رأس هذا الحزب وانصرف عن الأدب كلية ، وارتبط طه وهيكى فترة من الزمن فى ميدان « السياسة » ارتباطا قويا كان له أثره فى النهضة الأدبية ، فكم من مساجلات دارت بين الكاتبين حول مؤلفاتهما كان أبرزها نقد طه حسين لكتاب « جان جاك روسو » وخطاب « من هيكى إلى طه » عندما أصدر « ثورة الأدب » . .

ومن هذين الخطابين يمكن للباحث أن يرسم صورة واضحة لمدرسة « السياسة » ولا يعدو الحق أو يبعد عن الواقع إذا قال : إنها كانت أصرح

المدارس الأدبية وأجراها في النقد ، حتى ان كاتبها من كتاب السياسة
ينقد رئيس تحريرها في صحيفته ، على هذه الصورة ..

« يجب أن يكون هيكل شديد الالتواء على النقاد ، مسرفاً في ازدياء
القراء وغالياً في الاقتناع بأنه وحده موفق للخير حين يفكر وحين يعمل .
لا أعرف كتاباً علمياً أو أدبياً أراداً طبعاً من كتاب الدكتور هيكل بل
لا أعرف كتاباً علمياً أو أدبياً بلغ فيه الإهمال والفتور ما بلغاه في كتاب
هيكل ... طبع رديء مفعم بالاغلاط المنكرة وورق رديء يصرف
القارئ عن أن ينظر في الكتاب » .

ثم يصف طه هذه الجراءة من نفسه فيقول :

« ما رأيك في محرر السياسة الأدبي يتناول بهذا النقد العنيف
رئيس تحرير السياسة ثم لا يستحي أن ينشر هذا النقد العنيف في
جريدة السياسة ... اليس هذا اسرافاً أو شيئاً فوق الاسراف ؟

كلا ليس اسرافاً وإنما هو القصد كل القصد ، والاعتدال كل
الاعتدال فهيكلاً تلميذ لطيف السيد ، ولقد أذكر أن لطفي السيد علمنا
حين كان مدير الجريدة أن ننقد أصحاب الصحف في صحفهم ، وعودنا
أن ننشر نقدنا راضياً به مبتهجا له ، ونحن قوم يحب بعضنا بعضاً ،
ولكننا نتحاب في الحق والعلم والأدب وحرية الرأي قبل كل شيء ..

استغفر الله بل لو علمت ان في هذا النقد ما يفضب صاحبي أو
يفيظه لنشرته ولضحي بصحبة هيكل في سبيل ما اعتقد انه حق ..

وفي الواقع انه مما يحمد لهيكل ان يتقبل هذا وان يرضى به ، بل
انه ليذهب الى ابعد من ذلك حين ينشر كتاب ثورة الأدب ويتناوله طه
بالنقد .. ما يلبث ان يقول له « .. وهذا البحث الذي يشعرنى بمالك
من أثر في مجهودي وانتاجي يجعلك صاحب فضل كبير » .

ثم يمضي هيكل فيسجل صفحة مشرقة من الانصاف فيقول :
(..ولست اخفيك اني مدين في حياتي لكاتب لأشخاص كثيرين شجعوني
وآزروني ، ولكنت كنت وما تزال يا صديقي في مقدمتهم ، كنت وما تزال
كذلك حين القاك واتحدث اليك ، وحين أقرؤك وأستمع بجمال ما تكتب
وعظيم لذته ، وحين أفكر فيك وفيما أثرت في الادب وفي تاريخ الادب
من تأثرات لما تهدأ ، والحق انه اذا كانت ثورة الادب مدينة في العهد

الآخر لعدد غير قليل من الكتاب والادباء فهى مدينة لك بأعنف ما فيها ،
مدينة لك بأشد ما فيها طرافة) .

وإذا كان لنا أن نتساءل عن هذه الصداقة الادبية الضخمة أين
ذهبت فاننا نستطيع أن نتلقى اجابتنا من السياسة الحزبية .

يقول (جب) ان هيكمل (يعمل الروية والفطنة فى تدريج الرأى
العام المصرى الى مستوى الثقافة الاوربية) وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه من
وصفه بالاعتدال ، فهو لم يشترك فى معارك أدبية جريئة ، ولم يدخل فى
نقد صارم ، الا حين اختلف مع شوقى وكان قد كتب مقدمة للشوقيات
عام ١٩٢٥ ، ثم هاجمه عام ١٩٢٧ بمقالات جعل عنوانها (أخلاق شاعر
الاخلاق) .

بل ان هيكمل كان هادئا فى ميدان الصراع السياسى ، فبينما كانت
انصحف الحزبية تدور بالأراء الجريئة كان يكتب فى هدوء فلا تحس أنه
يتعصب أو يثير النقد .

وفنه الرئيسى المقالة المطولة ، وله مقالات ذات وهج أذكر منها على
سبيل المثال (الاجتهاد والتقليد) و (أزمة العالم : أزمة خلق
وعقيدة) (١) .

وبعد فهل نستطيع أن نجد « حياة » الكاتب فى أدبه ، أو هل تشيح
لنا آثاره أن ندرس نفسيته وشخصيته ؟.....

ما أظن أن ذلك يسير فلم يكن هيكمل حريصا على أن يجلو هذا
الجانب اذا استثنينا الجانب السياسى من حياته الذى كشف عنه فى كتابه
« مذكرات فى السياسة المصرية » . نعم نحن لا نستطيع أن نعرف الشئ
الكثير عن نفسية « هيكمل » وحياته غير ان الدلائل كلها تقطع بأنه
بنطوى على « شاعرية » لا شك فيها فهو لم يقف أمام رأى من مرأى
الجمال ، ولا منظر من مناظر الطبيعة فى خلال أسفاره ورحلاته المتعددة
الى أوروبا الى وصفه فى قوة وأفاض فى تصويره ورسم صورة واضحة
لأحاسيسه ومشاعره ازاءه .

سافر هيكمل الى أوروبا فى مطلع شبابه ، ثم سافر مرات متعددة بعد
ذلك عندما قضى ابنه ممدوح ، وغشيت حياته الزوجية غاشية ، فأراد أن

(١) السياسة - ابريل ١٩٣٤ .

يدفع عوامل الألم والحزن التي فرضت نفسها على حياته بتلك الرحلات التي قام بها صيف ثلاثة أعوام متتالية مع زوجته الى عوالم الشرق والغرب .

... ووفاة ممدوح ، حادث بعيد الأثر في حياة الدكتور هيكل وفي حياة الأدب ، فقد أصاب نفس والده بذلك اللون الحزين الذي صورته في مقدمة كتاب « ولدى » الذي كان ثمرة من ثماره ... وفي تاريخ الأدب المعاصر ، صورتان أخريان لولدين احدهما للزيات والاخرى لمحمود تيمور .. وسافر هيكل مرات الى لبنان وسوريا والحجاز والسودان ...

وارتبطت رحلاته هذه كلها بآثار في الادب والرحلة .. كان أبرزها « منزل الوحي » الذي جاء اثر اتصال هيكل بسيرة الرسول والتراث الاسلامي ، وحين أراد أن يمشى في أثر الرسول ويشهد أماكن الغزوات والمواقع .

ولا شك أن « الاعتدال » الذي يبدو واضحا في انتاج الكاتب وحياته الفكرية هو صدى لاعتدال في محيط النفس والاسرة والحياة الخاصة ... فهو زوج منذ صدر حياته ، وقد مضى في حياته على طبيعته ، يقرأ ويكتب وينشئ دون ما ارتطام أو اضطراب ...

ويبدو أن ما وصل اليه الكاتب من التبريز والشهرة ، يرجع الى عاملين هما طبيعته الخاصة واستعداده ، وطبيعة الوضع الذي أوجده فيه اتجاهاه السياسي .

ويبدو هيكل في حياته الخاصة رجلا ليست له بدوات ، من ذلك الصنف الذي يغلب الاتجاه العقلي عنده على اللون الوجداني ...

أما فيما يتعلق بصلاته بالمرأة ... فيبدو أن هيكل قد أحب في فجر شبابه وكان ثمرة حبه هذا قصة « زينب » . ثم لا تبدو المرأة في انتاجه الا على فترات متباعدة ... وفي صورة غامضة غير واضحة . هل كان له حب عظيم في باريس ؟ ...

ذلك ما نشك فيه ... فلم يرد في آثاره ما يدل على ذلك ، وانما يبدو أنه كانت هناك رؤى كان لها أثرها في الإلهام ...

« عرفت (١) بباريس في ربيع ١٩١٠ فتاة من كندا نزلت وأمها بالمنزل الذي كنت فيه ، وأقامت فيه أسبوعين ثم غادرت وأمها الى ألمانيا

(١) ثورة الادب .

فى رحلة من هاته الرحلات التى يعكف أبناء أمريكا عليها حتى لأحسبهم
يعتبرونها بعض واجبات الحياة ، وكنا أهل المنزل جميعا نقضى ما بعد
العشاء فى صالون متصل بغرفة المائدة نتحدث أو تعزف صاحبة المنزل
لنا بعض قطع على البيانو اذ كانت تجيد هذا العزف الى حد البراعة فيه ،
وقد وثقت هذه السويغات بينى وبين الفتاة السكندية اذ كنت أقدر
الحاضرين على التحدث اليها بالانجليزية لأنها لا تجيد الفرنسية ، وكنت
يومئذ اكتب « زينب » وكانت لى يومئذ فى الأدب وما أرجو أن أجدد فيه
من آثار ، أو هام طويلة عريضة ، فلما كانت الليلة التى اعترزمت مغادرة
باريس فيها وجعلنا نتحدث بعد العشاء خاطبتنى فى ذلك المستقبل الذى
كنت أرجو لنفسى ككاتب قصصى . فقالت :

« كم أود لو استطعت أن تكتب تاريخ مصر فى صورة قصصية كما
صنع سير والتر سكوت بتاريخ انجلترا ، اننى وان لم أعرف مصر أشعر
بأن فيها شيئا كثيرا جميلا ، وان تاريخها وآثارها جديران بالكشف عنها
وتقريبها للناس فى الصورة القصصية المحببة للنفس ، ولعلك ان فعلت
تجعل اهداء أولى هذه الروايات التاريخية الى » .

... هذه المرأة المهمة لهيكل ... لاتعطى صورة وجدانية واضحة ،
بقدر ما تعطى صورة عقلية محدودة ...

ومرة أخرى ... تحدث هيكل عن المرأة وأثرها فى الالهام (١) .

« ... لو أننى حاولت استقصاء نواحي الضعف فى الهام المرأة
الفن لطال الحديث ...

واجب المرأة فى الهام الفن فرض محتوم عليها ، لأن الطبيعة لا
تستطيع أن تقوم بهذا الالهام وحدها على الوجه الاكمل ، واشتراك المرأة
والطبيعة فى هذا الالهام هو الكفيل بكمال الفن » .

... وليس كاتب أو شاعر أو مصور أو مثال أو موسيقار ،
لا يحدثك عن حظ من الالهام - قل أو كثر - كان لامرأة فيه نصيب هو
الذى أوحى اليه بخير ماله من الفن وقد يصدر هذا الالهام عن تمليق تلك
المرأة لرب الفن أو عن دلهام عليه أو صدها عنه أو تعذيبها اياه .

وقد يصدر عن اشتراك فى الفكرة الفنية التى يروج بها خاطره

(١) السياسة الاسبوعية - ٢٦ من مايو ١٩٢٤ .

فتغذى الشرارة التي تلهب شعلة الفن المقدسة فى نفس رب الفن فيضىء
جوانب روحه فيندفع الى وضع الاثر الفنى ممثلا به فؤاده .

أليس بين سيداتنا المستنيرات من تشعر بهذا الواجب ، أو تحس
فى نفسها موهبة الايحاء لرب الفن موهبة لا يستطيع مغالبتها ، فما بالهن
اذن ينصرفن عن القيام بهذا الواجب المقدس ولا يقتضيهن شيئا يخالف
طبيعتهن النسوية الرقيقة التى صاغها الله فنا جميلا !! »

ولا يستطيع هذا القول الا أن يعطينا صورة واضحة لنفس هيكل
وهى تحس بالحرمان من أثر المرأة فى الهام الفن والادب .

وبعد فقد كان الادب أبرز مظاهر حياة « هيكل » وقد ترك فيه
آثارا باقية ، هى جزء من الادب العربى المعاصر ، لا شك فى جودته وقوته،
وان كان قد انصرف بعد عن الادب الى الحياة التى أحبها وأوغل فيها
- حياة السياسة والقانون - وضرب فيها بسهم وافر ، فان مراحل
حياة « هيكل » بدت متشابكة مترابطة وهى فى مجموعها صورة واضحة
لحياة مفكر .



محمد فرید ابو حنیفہ

اقرأ أى كتاب من كتبه ، أو استعرض ان شئت أسماء مؤلفاته ،
فإنك سرعان ما تضع يدك على مفتاح شخصيته وتعرف سر نفسه

اقرأ « زينوبيا » أو « الملك الضليل » أو « أبو الفوارس عنتره »
أو « آلام جحا » أو « سيف بن ذى يزن » ، تجد نفسك أمام شخصية هذا
الكاتب الشاعر القصصى ٠٠٠ الشغوف بأن يعيش مع التاريخ البعيد ،
مع الشخصيات المجهولة التى أضفت عليها الأساطير والقصص والحرافات
جوا من الغموض ، فعاشت بين السحب والغيوم ، عاشت ملفعة بالحجب
والضباب .

إنها القصص ، من حيوات أمثال زينوبيا ، أو امرئ القيس أو
جحا ، والتى ليست فى مصدرها وفى أصلها الا سطورا معدودة من كلام
مدفون فى بطون الكتب القديمة وإذا بالكاتب يأخذ ويضفى عليها من
ثقافته وخياله وفنه ما يكسوها بشرا سويا ، ويبعث فيها حياة جديدة ،
ويخلق حولها جوا لا تشك لحظة وأنت تقرأها أنه قريب من الجو الذى كانت
تعيش فيه هذه الشخصيات .

وليس أمامنا لكى ندرس شخصية « فريد أبو حديد » الا مؤلفاته
هذه بالإضافة الى كتابه « عمر مكرم » .

انه من الكتاب الذين لا يتحدثون عن أنفسهم ، ولا تبدو معالم
حياتهم واضحة فى كتاباتهم ، وان هناك هالة من الغموض تحيط بنا من
كل جانب ونحن ندرس هذه الشخصية .

كثير من الكتاب هم كذلك ، لا تعطيك آثارهم صورتهم النفسية
واضحة ، لا سيما أولئك الذين لا يتصلون بالصحافة اتصالا دائما
مستمرا ، فان هؤلاء يظلون فى حدود حياتهم الادبية الخاصة التى يعكفون
فيها على الانتاج الادبى المحرر ، لا يعطون الباحث تلك المادة التى تعينه على
الكشف عن حياتهم الوجدانية فى يسر .

وكتاب كزينوبيا أو الوعاء المرمى ، ماذا يمكن أن يعطيك عن كاتبه
الا صورة عقلية محضة ، هو أنه أديب شغوف بهذا اللون من الأدب ،

محب للايغال فى أعماق التاريخ والماضى ، والذهاب بعيدا بعيدا الى أعماق الجزيرة العربية ، الى الشخصيات البعيدة الغامضة ، هذه نفس شاعرة ، تندفع وراء الغوامض من أجزاء التاريخ لتحاول أن تعيش فيها وتجد فيها وتجد لذتها فى أن تبحث وراءها وتدرس كل ما يتصل بها .

ولكن مهلا ، فان دراسة مثل هذه الشخصيات ، ليست أمرا يسيرا هينا وليست من البساطة فى شىء ، ودراسة مثل دراسة حياة جحا أو سيف بن ذى يزن أو الملك الضليل تتطلب دراسة تاريخية ضخمة لعصره ، والحياة فى عهده ، والتقاليد والملابس والمجتمع والناس فى خلال هذه الفترات ، حتى يمكن أن يتم بناء هذه الصورة على أساس صادق من الواقع . فاذا توافرت هذه الأسس ، جاء الفن الأدبى نفسه فوضع الصورة الكاملة الواضحة ، للشخصية النابضة بالحياة ، والذهابة الى مداها فى الحركة والحياة .

وفريد أبو حديد حريص على أن يطوى شخصيته عن القراء ، وأن يطوى حياته الخاصة عن الناس فلا يدعها اليهم ، وهو يقول فى أحد أبحاثه (١) « ليغفر لى القارئ أن أحدث ، عن نفسى على كراهية فى طبعى للتحديث عن النفس » .

وهو لا يريد أن يقول لنا الا أنه أحب ذلك التراث العربى الزاخر من التاريخ ، وملك عليه نفسه منذ تعلق بالادب ، فاستغرق وقته ووقف عليه اهتمامه .

« كان التاريخ يبدو لى اذا قرأته غير تلك السير التى يقرأها الناس عادة ليستخرجوا منها علما أو عظة ، كنت أقرأ التاريخ ، فاذا بى أحياء مع من أقرأ سيرتهم ، وأعاشر أهل العصور الغابرة كأنما أنا من بعضهم ، أكاد أشعر بأنفاسهم وأحس بأحاساسهم ، وأهتز لما يهزهم ، وأغضب لما يغضبون له ، وأسر لما يسرهم ، وأتألم معهم فى محنتهم، وكنت اذا قرأت فى كتب الأدب أشعر بنشوة عجيبة لما فيها من آيات تسطع فى الذهن كما يسطع النور على صفحات الجواهر الصافى ، وكنت أرى دائما أن تلك الكنوز أئمن من أن تبقى فى مخابثها ، وأن تلك العصور أكرم وأنبى من أن تبقى طريحة فى سجل الزمن الذى انطوى وما أكثر ما كان لتلك السير من آثار فى نفسى وعقلى » .

فأدبينا محب للتاريخ ، كلف به ، صرف فى دراسيته ومطالعة

(١) مقدمة قصة « زينوبيا » .

شبابه كله ، واستهوته الشخصيات القوية الأثر في التاريخ ، ومن ذا الذى ينسى أنه أنصف « عمر مكرم » فى وقت كانت كتابة تاريخه على وجه من الانصاف لا ترضى الحاكمين ، غير أن هذا الاتجاه لم يطل أمره ، إذ تحول سريعا الى الفن الذى يملأ عليه قلبه ، تلك الصورة التى تتصل بالأساطير والقصص الغامض « وددت لو تأتيني القوة ويطاوعنى الطبع على أن أبلغ ما تصبو اليه نفسى فأخرج للناس صورة الحياة التى يمتلئ بها قلبى فى ثوب مختلس من تلك الكنوز الثمينة فأكون كالصانع اذا استعار رسما قديما فأبرزه فى حلية جديدة يرفرف عليها روح القديم فوق هيكل حى جديد » .

غير أن هذا الاتجاه الذى استقر عليه كاتبنا بعد أن ارتفعت به السن ، وجعله مذهبه الأدبى ، ولونه الواضح الصريح ، يمكن أن يردنا الى صباه ويلقى ضوءا على ماضيه فندرس شخصيته فى وضوح .

هذا الاغراق فى قصص حرب البسوس وسيف بن ذى يزن وامرئ القيس والزباء وعنترة يرسم صورة الكلف الواضح فى الشباب الى ذلك الشاعر الذى كان يجلس فى المقاهى فى العهد الماضى فيروى قصص هذه الحروب .

كان « فريد » معجبا بهذا اللون من الرواة ، وكان فيما يبدو يتعقب هؤلاء من مكان الى مكان ، ومن مقهى الى مقهى ، ليسمع وليطبل انسماع ، وليقضى الليالى مرهقا سمعه وحسه الى هذا الفيض من القصص ثم اذا به ينكفىء بعد ذلك الى كتب التاريخ ليقرأ ويقرأ .

وهو لا يلبث أن يحدثنا عن هذا الاتجاه حيث يقول « (١) ٠٠٠ » وبلغنا ميدان الحسينية قبل منتصف الليل ، وكان النسيم ما يزال يهب وديعا والبدر الباهر يتوسط السماء الصافية والانوار الساطعة تنبعث من الحوانيت والمنتديات الشعبية التى تحف بالميدان .

ولاحت لنا حلقة فى منتدى كان قائما عند مدخل الطريق الضيق المؤدى الى المدينة ، وكان فى وسط الحلقة شاعر ينشد على ربابته ويقص على الجمع الحاشد قصته ، وكان فى رنين انشاده من بعيد ما يوائم نبضات قلوبنا المضطربة .

وكان الشاعر شيخا لا أذكر أن عيني وقعت على مثل صورته ، كان

(١) قصة الوفاء المرمى .

نحيفا معروق الوجه له لحية خفيفة وخطها الشيب، ولكن عينيه الكليلتين كانتا تنبضان بنور لامع يخالطه سيال وديع يشعر بشجن دفين ، وكان يلبس عمامة بيضاء ذات عدبة تضطرب على كتفه اذا تحمس في انشاده بصوت متهدج تنم نبراته عن حركة نفسه وحرارة وجدانه ، وكانت ربابته تصاحب انشاده بلحن عميق يملأ جو المنتدى بأصدائه وهو يعلو حيناً ويخفت حيناً ويرق في مواضع ويعنف في أخرى .

« . . . منذ تلك الليلة صرنا من قصاد ذلك المنتدى البلدى نذهب اليه اذا اجتمعنا أو وحدنا اذا لم ندبر اجتماعا حتى أصبح لنا بعد قليل ملتقى مختاراً » .

« . . . ثم يصف « فريد » اثر هذه النشوة في نفوس الشباب . . . وفي الكفاح من أجل الحرية » . . . كنا نجتمع هناك كل ليلة في المنتدى ندبر مع أصحابنا خطط الجهاد في سبيل الحرية . وكان لهذه الصداقة الجديدة أثرها العظيم عندما شبت الثورة الكبرى في مارس من ذلك العام . و . . . لا ينكر أحد أن أناشيده القوية الوثابة (يقصد الشاعر) كانت تحرك قلوب طلاب الحرية نحو عزمات الغد الطالع في ضمير الغيب » .

وتستطيع هذه العبارات أن تعطينا صورة لنفس «فريد أبو حديد» فهو محب للبطولة ، مغرم بها ، وقد ترصد لها في القصص ، كما اتصل بها في الحياة فشارك في ثورة ١٩١٩ ، وقرأ حيوات الابطال العرب الذين استفاضت بالحرب والكفاح والدماء والبطولات .

وهو مغرم بالاقطاب الذين تركوا في أوطانهم وفي التاريخ آثار ما تزال برغم مرور الزمن قوية واضحة ، لا يمكن نسيانها أو تجاهلها ، بل هي ما زالت حتى الآن تبعث في النفس الشوق الى التضحية والكفاح . . .

وأنت تلمح من صفحات آثاره الصرامة والوضوح والرغبة الى أن يكون صريحا جريئا ، تفيض نفسه بالحق ، كأنما هو من أولئك الذين يكرهون المداورات والمناورات ويغضون أساليب السياسة مما يطلقون عليه اللباقة أو تجميل الألفاظ ، أو ما يطلقون عليه اسم الأسلوب الذي يجرح ولا يسيل الدماء فهو على طبيعته واضح صريح ، صارم حاد ، لا يعرف ميلا ولا زيغا ، ولا يرى في الحق مجاملة ، انما يقول كل شيء ويمضى . . .

ويأتى هذا متسقا مع حبه للبطولة واعجابه بها ، وهي طبيعة

الفرسان ورجال الوغى الذين عاش معهم فهم لا يعرفون تلك الألوان الرقيقة اللينة ولا تلك الاساليب التي توصف بأدب الصالونات ٠٠٠٠ ولعل مرجع هذا فيما نعتقد تلك الحياة الريفية البدوية التي عاشها الكاتب في فجر حياته .

« فريد أبو حديد » واحد من هؤلاء الرواد الذين بدءوا حياتهم الأدبية مع ثورة ١٩١٩ أو قبلها بقليل ، تأثر في فجر شبابه بالأدب الانجليزى وأوغل فيه فقرأ لكتاب القرن التاسع عشر من مارلو الى والترسكوت الى دكنز ، وأحب شكسبير وتأثر كثيرا بكنت في عمل القصة التاريخية .

واشترك في تحرير السفور وكتب في السياسة الاسبوعية تابلوهات قصيرة لعلها كانت أول اتجاهه القصصى .

ومضى « فريد » على طبيعته هادئا متئدا ، لا يتصل بالصحافة ولا يشارك في السياسة ، ويخلص لفنه وأدبه ، وتركت قراءته «لآلام فترته» أثرا يختلف عما تركت في نفس الزيات من أثر فقد كره هذا الضعف والتخاذل ، فأنشأ قصته « مذكرات المرحوم محمد » سنة ١٩١٣ .

وابتدع « فريد أبو حديد » الشعر المرسل ، حين ترجم أجزاء من قصة أنطونيو وكليوباتره بهذا الاسلوب ، ثم ترجم سهراب رستم ومضى في اتجاهه هذا فكتب بهذه الطريقة قصة عثمان بن عفان ، وخسرو وشيرين .

وظل فريد أبو حديد تتنازعه طبيعتان مختلفتان وان كانتا قريبتين ٠٠٠ هما طبيعة المؤرخ وطبيعة القصاص ، كان قرأ كل أمهات الكتب التاريخية ولمح فيها صورا غاية في الروعة والقوة لو أنها كتبت على الطريقة الحديثة ، ولو أدخل إليها فن من فن والترسكوت وشكسبير .

لقد كانت « ربابة الشاعر » الكامنة في أعماق « فريد أبو حديد » تصارع فيه « المؤرخ » ٠٠٠ وأخيرا غلبت عليه طبيعته فأخرج تلك الآثار الرائعة التي تقدم نفسها للخلود .

« الملك الضليل-زينوبيا-الوعاء المرمرى-المهلل سيد ربيعة » .

فاذا ذهبنا نستقصى صلة أدب الكاتب بشخصيته ، وجدناه وثيقا قويا ، فهو من ذوى الطبائع النقية الصريحة ، يبدو هكذا حين تتحدث معه ، وحين تقرأ له .

فى نفسه ذلك الاحساس الحاد المتدفق بالوطنية الذى صورته فى قصته الوعاء المرمرى ، وفى كتابه عمر مكرم الذى ألفه بعد معاهدة ١٩٣٦ ، وفى كتابه عن ثورة ٢٣ يوليو « أنا الشعب » .

فاذا ذهبنا نستشف شخصيته وجدناها واضحة فى بطل قصة أزهار الشوك « فؤاد » الشاب المحب للريف ، الكلف بجماله وأصباحه وأمسائه وأصائله المتفتح القلب ، الجياش العاطفة يصف أباه معجبا به « ... وكان كلما وقف هناك خطرت له خطرات من ريف النجيلة ، ومن أيامه فيها وأماسيه فى أشهر الصيف ، ثم تتمثل له صورة من هناك ... وكل هؤلاء الذين ملأوا عليه الحياة فى تلك الشهور ، ثم تتمثل له صورة أبيه محلقة فوق هذا الخلق كله كما يحلق النسر فوق قمم الجبال ، لقد عرف أباه قبل ذلك الصيف ، ولكنه عرفه فى تلك الشهور كما لم يعرفه من قبل ، ففتح عينيه آخر الامر فرآه رجلا وانسانا كان يعيش فى ريف النجيلة البعيد أمة وحده وسط أمة أخرى يعرف أنه غريب عنها . ولكنه كان يمد يده اليها كما يمد السابح الماهر يده الى الغريق الذى يكافح الموج الى جانبه (١) » ...

ويبدو فهم « فريد أبو حديد » للحياة على هذه الصورة الواضحة القوية « ... رأى يوما فى بعض وقفاته عودا ضئيلا تتقاذفه الامواج على سطح الماء تعلو به ثم تنحدر ، وتتجه به الى اليمين تارة ثم تلقيه الى اليسار ، ثم اذا دوامة شديدة تجذب العود اليها فتدور به لحظة ثم تبعث به الى الاعماق .

وكان هذا المنظر يشبهه وحيا هبط عليه ، فبدأ له أن «البشر ليسوا فى الوجود سوى هنة مثل ذلك العود الضئيل ، والقضاء يقذف بهم حيث يريد ، فهم يأتون الى الحياة بغير أن يريدوا حياة ، وهم يمضون فيها حتى يخرجوا عنها ، سواء طالت أيامهم أو قصرت ، فاذا حان ذهابهم عنها ذهبوا كما جاءوا اليها قسرا وأمرا بغير أن يكون لهم ارادة » .

ويصور شخصيته فى صورة نقية « ... لقد تعود فى حياته بساطة الريف ، فهو لا يميل الى مفاتن المدينة وملاهيها ، ولا يرتاح الى محامعها الصاخبة ولا الى أنوارها التى تكاد تغشى العيون ، كان نور القمر الخافت أحب اليه من أضواء المسارح الوهاجة ، وكانت أنفاس الشاطئ أرواح لصدرة من جو الأبهاء المزدهمة ، وكانت أغاني « قوية » الساذجة ورقصة

« تعويضة » الوحشية أدعى الى مسرته من النغمات الناشزة التي تبعثها الموسيقى الصاخبة فى حلقات الرقص الماجنة (١) .

يقول الاستاذ « فريد أبو حديد » ان أعظم حادث فى مجرى حياته هو دخوله مدرسة المعلمين ، فقد دخلها وهو كاره وكان يحب أن يدرس الحقوق . . ولذلك لم يلبث أن حصل بعد على اجازة الحقوق وان لم ينصرف عن التدريس وكان ذلك «مفتاح» اتجاهه الادبى الذى رسم حياته الفكرية فى المستقبل .

ويقول : ان مثله الأعلى فى الحياة أن يعطى ماعنده ، وهو يفضل فى الناس العدالة مع العفو ، ويفضل فى النساء الكرامة مع الرحمة ، وأحب الفضائل اليه عظمة القلب ، وهو يرى البطولة فى الاستشهاد بمبادئ الحياة من أجل فكرة ، وهو يحب فى الزهور الوردية ، وفى الطيور اليمامة ، وأفضل هبات الطبيعة عنده القلب الكبير .

ولكن الى أى حد يمكن الموازنة بين الصورة وبين الحياة نفسها .
ذلك ماندعه للتاريخ نفسه .

(١) المصدر نفسه .



سلاوة موسی

في كتابه « وسلامة موسى حياته كما صورها بقلمه » ، الكاتب الثائر
المتطرفة .

ولكن هناك جوانب تشرف سلامة موسى ونكتب له في تاريخ الأدب
المعاصر صفحات مشرقة تلك هي ترجمته لنظرية التطور والتفسير المادي
للتاريخ ، ونظرية السيكلوجية الحديثة بين فرويد وادلر ويونج . . . فقد
نقل هذه العلوم الى العربية في أسلوب واضح دقيق ، لم يصل اليه غيره
من المشتغلين بهذه العلوم والدراسات .

« . . . ليس مما يتفق لكل كاتب أن تكون أول مقالاته وباكورة حياته
الأدبية عن فلسفة ناثرة هائجة مثل فلسفة نيتشه ، ولكن هكذا قضى
القضاء أن أكتب أول ما أكتب في حياتي ، وأنا فتى لم أبلغ العشرين ، مقالاتي
المقتطف ١٩٠٨ عنوانه « نيتشه وابن الانسان » ولشد ما كان اغتباطي
عندما رأيت الدكتور صروف يعلق على المقال في العدد التالي بالاستغراب
لهذه الفلسفة الجديدة التي تنقض بلا حياء ولا موارد الاخلاق المسيحية
والفضائل الشائعة ، واني أرجع الآن بالذاكرة الى هذا المقال فأجد فيه
رمزا لهذا المركز الذي أنبؤوه الآن بين الرجعيين حيث أقف منهم موقف
الهادم لما تصدع من العقائد الممزق لما بلى وتهتك من العادات والشرائع » .

هكذا بدأ سلامة موسى حياته كما صورها بقلمه ، الكاتب الثائر
المتطرفة الذي مازال حربا على قديم اللغة والتاريخ والاديان والشرق .

وسلامة موسى من الكتاب الذين لا يؤمنون بالغرب ايمانا كاملا ، كل
ما في الغرب من خير وشر ، ومن هوى وضلال ، وهو يرى أن الشرق
لا يمكن أن يصل الى المكانة المرموقة الا اذا « استغرب » استغرابا كاملا .

وسلامة موسى هو أشد كتاب مصر تطرفا في الرأي ، حتى اتهم في
وقت من الاوقات بأنه يروج رأى الملاحدة والتحليلين ودعاة المذاهب
المتطرفة .

ولكن هناك جوانب تشرف سلامة موسى ونكتب له في تاريخ الأدب
المعاصر صفحات مشرقة تلك هي ترجمته لنظرية التطور والتفسير المادي
للتاريخ ، ونظرية السيكلوجية الحديثة بين فرويد وادلر ويونج . . . فقد
نقل هذه العلوم الى العربية في أسلوب واضح دقيق ، لم يصل اليه غيره
من المشتغلين بهذه العلوم والدراسات .

يقول المستشرق (١) جب . . . « على أن الجناح الايسر المتطرف من
المجددين المصريين قوامه فريق أكثره من المسيحيين المصريين وأبرزهم
سلامة موسى ، مخبر الهلال السهرى » .

وقد ظهر سلامة موسى فى اول الامر بكتابه فى الدفاع عن نظريتي
التطور والاشتراكية اللتين درسهما أثناء اقامته بانجلترا .

وهو يؤثر بحبه برنارد شو وولز ، وهو مثلهما يتكلم بلا خوف بل
يستثير سخط الناس بمواضيع لا يتناولها أشد المجددين تطرفا الا يحذر .

ولعل خير مثال لذلك مقالته عن التوحيد التى يردده فيها الى أصل
طبيعى ، وموقفه حيال الأدب العربى والأسلوب الأدبى فيه جرأة ونشاط ،
وهو يرى فى كل من الأدب القديم والحديث نقصا فى المعرفة الصحيحة ،
وفى الاتصال بحقائق الحياة .

ولكنه مع تميزه عن زملائه بتطرف آرائه ، يتوخى فى كتابته الرنة
العربية المألوفة . وهو يشبه سلفه جورجى زيدان فى أسلوبه العلمى أكثر
مما هو أدبى ، ولكنه لا يمكن أن يقال انه خير خلف لزيدان فى أحوال
حصر الجديدة

لقد كان للانقلاب التركى - عام ١٩٢٤ - أثره فى نفس سلامة
موسى فجعله مادة للكلام عن القبعة والطربوش . . وعن الغاء مادة الدين
فى المدارس وعن الكتابة بالعامية وعن العودة الى الفرعونية .

وكان لاثارة كل قضية من هذه القضايا صدى ودوى ، وقد جرى
السجال فيها بين المجددين والمحافظين طويلا .

يقول فى مقال له بالهلال - نوفمبر ١٩٢٢ - « ليس هناك حد
يجب أن نقف عنده فى اقتباسنا من الحضارة الأوربية ، يجب أن نفزع
نحو أوربا ، ونفتح أبوابنا على مصراعيها للحضارة الاوربية ، وننقل
مبادئ الديمقراطية والبرلمانية والاشتراكية ، وهى مبادئ لم تعرفها
آسيا أيام الاستبداد الأتوقراطى فى الحكومة والدين والأدب والعلم .

ومن واجب كتاب الصحف والمجلات أن يؤسسوا نوعا من الرقابة
«لئلا يمنع الرجعيين ذوى الثقافة الآسيوية من نشر آرائهم فى صحفهم أو
طبعا للجمهور فلا ينبغى مثلا لصاحب المجلة أو الجريدة أن ينشر دفاعا
عن الحجاب أو ما يشابه ذلك

وهو جرىء فى آرائه عن الحضارة « . . . يجب أن نذكر أن الحضارة
العصرية هى حضارة الصناعة ، ويجب أن نذكر أن أوربا تختلف عن
الأمم الشرقية بالصناعة وترتقى عليها بها وليس هناك سبب آخر لارتقاها
وتفوقها علينا ، وكل ما يقال عن روحية الشرق ومادية الغرب هو لباب

«بلهذه وخرافات الرجعيين أعداء النور والرقى» فإذا تحدث عن الشرق كان رأيه غاية في الظلم «... كلما ازدادت معرفة بالشرق ازدادت تكرامة له ، وشعرت أنه غريب بالنسبة لى وكلما ازدادت معرفة بالغرب ، كلما «ازددت حباله واقترابا منه وأحسست بأنه يمت الى وأنا أمت اليه ...»

سافر الى أوروبا عام ١٩٠٨ وعاد ١٩١٣ وأمضى هذه الفترة بين باريس ولندن ، وغلب الادب الانجليزى فى نفسه على الفرنسى اذ رآه متفقاً مع طبعه ...

«ومع أن اللغة الفرنسية هي لغة الافصاح ولغة الادب الحر ومع أن باريس بؤرة الآداب الاوربية بل مشعلة الثقافة التى تشبو الى ضوءها عيون الأوربيين ، ومع أن فرنسا لاتزال فى وجداني فكرة أكثر مما هي قطر ، فاني لاتجاهي العلمى وحديثى فى مستقبل أيامى أميل الى قراءة الكتب الانجليزية ، وأوثرها على الفرنسية لأن الانجليزية تعبر عن نزعة علمية تحقيقية كثيرا ما نجدها بعيدة أو غائبة عن المزاج الذهني الفرنسى، ولذلك أعزو تربيتى الثقافية الى الانجليزية أكثر مما أعزوها الى الفرنسية ...»

وفى لندن عرف إبسن ونيتشه ، وتأثر كثيرا ببرناردشو وولز واندرجين وغاندى وكارل ماركس وجيته ودستوفسكى وفولتير ، ولما عاد الى مصر اشتغل بالصحافة وكتب فى الهلال والبلاغ وكل شيء وأنشأ المجلة الجديدة سنة ١٩٢٩ .

وهو يرى « أن المؤلف بالمقارنة الى الصحفي يعد ناسكا ، فان المؤلف ينزوى فى غرفته باحثا منقبا ، ولكن الصحفي يخرج ويختلط بالمجتمع ، ومع أن أكثر جهودى فى الصحافة كان ثقافيا فى بحث العلوم والآداب فاني مسست السياسة أيضا ، وأحيانا اقتحمت غبارها حتى عصفت بى فى كثير من الأوقات ...»

فإذا أردنا أن نعرف شيئا عن حياة سلامة موسى الوجدانية لم نجد فى مؤلفاته ولا فى كتابه «تربية سلامة موسى» ما يهدينا الى هذا الهدف ، وحياته فى أوروبا فى الأغلب لم تترك عنده أثرا وجدانيا واضحا الا فى حدود عباراته .

«... كانت شهواتى الملتزمة فى تلك السنين ذهنية أكثر مما كانت جنسية ، كانت المرأة الفرنسية أعظم ما حرك وجداني الاجتماعى ، بل

الصفحة	الموضوع
٣	١ أحمد شوقي
١٣	٢ حافظ ابراهيم
٢١١	٣ مصطفى الطفي المنفلوطي
٢٩	٤ أحمد أمين
٣٥	٥ مصطفى صادق الرافعي
٤٧	٦ جبران خليل جبران
٥٧	٧ مي زيادة
٦٩	٨ مصطفى عبد الرازق
٧٧	٩ محمد السباعي
٨٣	١٠ جرجي زيدان
٩١	١١ عبد العزيز البشري
٩٩	١٢ ابراهيم عبد القادر المازني
١١١	١٣ محمود تيمور
١١٩	١٤ أحمد حسن الزيات
١٢٩	١٥ توفيق الحكيم
١٤٣	١٦ عباس محمود العقاد
١٥٧	١٧ محمد حسين هيكل
١٦٩	١٨ محمد فريد أبو حديد
١٧٩	١٩ سلامة موسى

هيئة قناة السويس

مناقضة عامة

تطرح هيئة قناة السويس - في مناقضة عامة بين مقاولي

القطاع العام والخاص - عملية انشاء مركز طبي بورتوفيق .

ويمكن الحصول على مستندات المناقضة بالحضور شخصيا

بمقر الهيئة بالاسماعيلية (قسم المشروعات) نظير مبلغ عشرة

جنيهات . وتقدم العطاءات داخل مظروفين مغلقين بالشمع

الأحمر ، ويكتب العنوان الخارجى باسم السيد رئيس هيئة

قناة السويس - الادارة الهندسية (قسم المشروعات) في

ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم ٢٣ من يونية

سنة ١٩٦٤ ويجب أن تكون العطاءات مصحوبة بتأمين ابتدائي

قدره ١٠٠٠ جنيه ولن يلتفت الى العطاءات التى ترد بعد الموعد

المحدد أو الغير مصحوبة بالتأمين الابتدائي .

الذات القومية للطبائفة والنشئة